ذكرياتٌ عَطِرَةٌ
بِهَدْيِ النُّبُوَّةِ

***

تأليف الدكتور

سيف الإسلام حسين عبد الباري

***

مراجعة وتصحيح وتعليق

الأستاذ الدكتور

السيد مصطفى السيد

***

إشراف

الشيخ الدكتور

أسامة حامد مصيلحي

اسم الكتاب:

ذكرياتٌ عَطِرَةْ بِهَدي النُبُوَّةِ

المؤلف:

الدكتور سيف الإسلام حسين عبد الباري

——

مراجعة وتصحيح وتعليق:

الأستاذ الدكتور السيد مصطفى السيد

——

إشراف:

الشيخ الدكتور أسامة حامد مصيلحي

——

تصميم الغلاف: مُصعب علي

الإخراج الداخلى:

قسم الجرافيك بمركز **تنوير** الثقافي

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: "؟؟؟؟؟؟؟"

تحذير:

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف.. وغير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج الكتاب أو أى جزء منه أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد إلكترونى أو نقله بأية وسيلة أخرى أو تصويره أو تسجيله على أى نحو دون أخذ موافقة كتابية مُسبقة من المؤلف..

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

«فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ»

«الأعراف: آية رقم ١٧٦»

بين يدي الكتاب

الحمد لله وحده..

والصلاة والسلام على

سيدنا محمد صلي

الله عليه وسلم..

أما بعد،،

الحمد لله الذي وفقني لقراءة هذا الكتاب:

«ذكريات عطرة بهدي النبوة»

فإن مؤلفه أكرمه الله كتب قصصًا واقعية عايشها من تجربة حياته وقد صيغت جمعيها بأسلوب بديع وتحمل بين ثناياها أمورًا تربوية هامه ممزوجة بالآيات القرآنية والأحاديث الشريفة..

فبدأ الكاتب في القصة الأولى التي عاشها مع أخٍ له في الله فيقول أنها ذكرياتٌ سعى بها لإعلاء شرع الله وهي لا تخلو من أثرٍ من آثارِ الشرع فلو فطن الإنسان لها لسارت حياته كما يحب الله ورسوله ويرضى..

فالأُخوة الإسلامية منحة ربانية يمنحها الله لعباده المتقين فهي أُخوة خالصة من المصالح أخوة خالية من الأخذ.. بل أصلها العطاء بشتى أنواعه:

«إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ»

فالإخوة أخت الإيمان والإيمان أخا الإخوة.. فلا يوجد إيمانٌ بدون إخوة.. ولا توجد إخوة صادقة بلا إيمان..

وكما يقول أكرمه الله:

«كم من صاحبٍ أو رفيقٍ طالت صحبته ورفقته لسبب أو لأخر ومع هذا لم ينقش في القلب أو العقل ما يجعل له من الخصوصية مكانًا، وسُرعان ما تخفت المشاعر وتتلاشى الذكريات شيئًا فشيئًا، إذا ما تباعدت المسافات وانقطعت المعاملات.. لكن المتحابون في الله الذين احتواهم القلب وأنشغل بهم العقل أبدًا لا يغيبون، فقد أصبحت رؤياهم بالقلب لا بالعين، وسماعهم بالعقل لا بالأذن»..

وهكذا كان حال كاتبنا مع أخيه في الله.. ووضح أن الإخوة الإسلامية ليست ميراثًا ثقافيًا نجده بمجرد سماعنا، ولكنها تكتسب من خلال المعاملات والمعايشة والوُد والإخاء وحمل الهم..

وكذلك فالأخوة الإسلامية تنمو بميراث الثقافة الإسلامية، ومكانة المتحابين عند الله وتقواهم، ثم تنمو كذلك بتعارفٍ جيد في كلِ الأحوال..

فما أجمل أن نُرجع الفضلَ والمِنة في هدية الأخوة لله وحده..

فكتابة هذه القصة الواقعية مفيدة للأجيال حتى يعلموا أن ما حدث بين الصحابة رضوان الله عليهم ممكن حدوثه لو وُجِدَتْ القلوبُ المليئة بالإيمان.. وأن الصحابة رضوان الله عليهم لم ينزلوا من السماء، ، بل هم بشر مثلنا، وسبْقُهم بعملهم إنما هو لحبهم لكتاب الله والعمل به..

فهم رضوان الله عليهم كانوا أصحاب النبي «ﷺ» وفي العصور التالية لهم ومن نهج نهجهم واتبعهم بإحسانٍ هم إخوان رسول الله «ﷺ» ، ،

ففي الحديث أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ «ﷺ» أَتَى الْمَقْبُرَةَ، فَقَالَ:

«السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا» قَالُوا: أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «أَنْتُمْ أَصْحَابِي وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ» فَقَالُوا: كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ: «أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَيْ خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ؟» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: " فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ، وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ"[1]..

فجزي الله الكاتب خيرًا حيث أبرز في هذه القصة أهمية الأُخُوَةِ الإسلامية والوسائل التي تساعدنا على تقويتها..

ثم تحدث فضيلته في القصة الثانية تحت عنوان الساحر:

فوجهنا الكاتب - أكرمه الله - إلى مسئولية العمل لهذا الدين.. وأن العمل يبدأ بتربية النفس.. لأن المسلم هو المسئول الأول عن نفسه وعن توفير المناخ المُلائم للارتقاءِ بها في شتى المجالات، حيث كان حرصه على الصلاة في الجمعية الشرعية مع بُعد المسافة عن بيته..

وكذلك من العمل للإسلام أيضًا مسئولية المسلم في تربية زوجته على الإسلام واصطحابها إلى المسجد فقط، فالزوجةُ أمانَة في عنقِ زوجها

[1]) صحيح مسلم..

ليس فقط إطعامها وكسوتها بل الأهم من كل ذلك الارتقاء بإيمانها لأنها ستكون محور الأسرة ورفيقة الدرب..

فالراحة الحقيقية في عبادة الله والراحة لمن ترك الراحة وأجهد نفسه في العبادة وعندئذٍ تستريح نفسه وترضى وتطمئن..

فكثيرٌ من المسلمين يُخطئون عندما يظنون أن السعادة بالحصول على كل ما استُحدِثَّ من الدنيا وينسون أنها متعلقة بتعلق القلب بالعبادة، فعندما تُسلم نفسك للّهِ وترضخ له بالعبودية على الوجه الذي أمرَ به اللّهُ جلَّ في عُلاه فإنك ستكون عندئذٍ قريب منه يحفظك ويرعاك..

ونستطيع أن نفهم أن القُرب من الله يكون بالخضوع واللين سواء كان سجودًا أو مسامحة أو هدوءًا من غضبٍ أو تواضعًا لخلقِ الله.. قال تعالى:

«وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ[1]»

أما المتكبر فلا يمكن أن يقترب من الله..

ثم طاف بنا الكاتب أكرمه الله في قصة واقعية عن والده رحمه الله تحت عنوان « إنه أبي»:

حيث كان والده مريضًا وفي زحمة انشغال الكاتب طلب والده منه أن «اقعد شوية» ولم يكن يدري أن الوالد سيرحل عن دنيانا ويريد أن يجلس مع ابنه قليلًا، وفي زحمةِ الهموم والانشغالات الحياتية اعتذر لوالده.. وذهب وقال: أراك غدًا يا أبي، وغفل عن أن الغد لا يملكه إلا الله تعالى..

[1]) سورة العلق: آية رقم ١٩..

وذهب ليبحث عن حلٍ لمشكلة مادية ولكن والده غادر الحياة.. فشتان بين دقائق معدودة يلبي بها حاجة مُلحة تملك تحقيقها، وبين أن تطلب شيئًا لا تملكه..

ونستطيع هنا أن نُدركَ ضرورة الاهتمام والتركيز على طلبِ الآخرين وتقديمها على النفس، وخصوصًا إذا كان الأمر يعود للوالدين..

أنت تظن أنك سواء جلست مع والدك المريض أم لم تجلس فلن تؤخر من أجله شيئًا، ولكن شتان بين أن يرحل الوالد وهو بين يديك مُطمئنًا بك.. ومعكَ.. وبين رحيله دون أن تلبي رغباته..

وأخذنا الكاتب أكرمه الله إلى الحكمة التي من أجلها وصانا الخالق بالوالدين أكثر من مرة:

«وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا»

فعلينا أن نكون حذرين رُحماء بالأبوين ورعايتهما وتنفيذ رغباتهما قبل أن يرحلوا..

حيث يقول الكاتب:

«كان كل شيء بالنسبةِ لي في هذه اللحظة هينًا إلا أن يذهب أبي ويتركني بحسرتي وكمدي قبل أن أعتذر له وأُقبل يديه ورأسه وقدميه»..

ثم يقف بنا الكاتب عند موضوع «الإحالة إلى المعاش»:

وقد اعتبر الخروج إلى المعاش من الوقفات القهرية في حياة الإنسان لمراجعه النفس وحسابها على ما مضى من عمر.. فعبر عن مكنون

مشاعره التي سجلها بنبض قلبه، وخلجات نفسه، ويصف لنا حال الخارج إلى المعاش فيقول:

«إن نقل الشتلة من مكانها إلى أرضٍ جديدة في مرحلة الصغر يبشر بترعرعها ونموها وانتشارها بالخير، بينما الشجرة إذا ما استقرت في الأرض وتشعبت جذورها لا تحيا غالبًا إذا ما نُقِلَتْ إلى أرضٍ جديدة.. إلا بكفاحٍ وعناء.. وربما لا يُكتب لها البقاء»..

ولكن مع التوجه إلى الله وحسن التوكل عليه، ومع دعوات المخلصين تهون كل الصعاب..

وكم كان جميلًا منه أن يسجل هذا الموقف الرائع المتمثل في مشاعره الفياضة، والتي جمعته مع رئيس الإدارة المركزية، حتى تحابا في الله، فيأبى إلا أن يُسجل هذه المشاعر لتكون مثالًا يُحتذى وبخاصةٍ عندما تنتهي علاقة العمل وتنتفي كل مطامع المصلحة، بل هو الحب الخالص لله رب العالمين، فما أجمله من موقف راقي عظيم..

ثم ينقل لنا مثالًا آخر هو علاقته بزملاء العمل، وكيف أنهم كانوا كالأسرة الواحدة، حتى أنه يقول:

«ولكم هو غريبٌ أمر هذا الإنسان، إنه ليستطيع أن يتحمل مشقاتٍ وأعباءًا وهو مع الجماعة أكبر بكثيرٍ مما يقدر عليه لو كان وحيدًا مُنعزلًا عن الآخرين، وكأن أيدي الجماعة تحمل معه، حتى وإن لم تكن ممتدةً إليه بالفعل، ولكنها طبيعة الخلق حيث أهَّلَ الخالق سبحانه كل مخلوق بما يوافق رسالته في الحياة، ولن تتم رسالة الإنسان منعزلًا عن

الآخرين، ولهذا أصبحت خصائص جسده كاملة النضج والقدرة والعطاء إذا ما كانت في جماعة، عنها وهي في معزلٍ عن الآخرين»..

ويالها من مشاعر تسمو بالإنسان إلى أعلى الدرجات، حيث تتجسد معاني الحب والصدق والوفاء والإخلاص، بصورة يتمنى من يطلع عليها أن يشارك فيها، وينهل من ينابيع عطائها، فجزاهُ اللّه خير الجزاء..

والقصة الأخيرة تحت عنوان «رأيتُ اللّه»:

حيث حفل تكريم المتفوقات وكذلك وصف المناخ الذي عاشه في هذا الحفل بقلبٍ نابض.. ولغةٍ بديعة تأخذ القلب وتنطلق به إلى عالم الملكوت الرباني، حامدًا اللّه على نعمه عندما استمع إلى تلاوة القرآن بقلبه عبر الأذن المؤمنة..

ووضح فضيلته كيف نصل بشعورنا إلى أعلى درجات الإيمان، ونحن نستمع إلى آياتِ الذكر الحكيم عندما نتفكر ونتدبر فيما نسمعه فنعيه وتعقله قلوبنا، ومما يساعد على ذلك هذا الصوت الجميل المنبعث من قلب قارئة القرآن، ووضح لنا أنه لكي نصل إلى المردود التربوي من القرآن الكريم فالأمر يحتاج إلى قلب القارئ الخاشع تتلقاه الأذن المؤمنة..

وأكد فضيلته أنه كلما ازداد الإنسان قُربًا من اللّه رأت عيناه ما يطمئن به، قلبه فتصبح عين المؤمن ترى من عجائب قدرة اللّه ما لا تراه عين العاصي..

ثم طاف بنا حول القارئة، صاحبة الصوت الملائكي والقلب الفياض والعين الباكية عند قراءة القرآن، وكونها يتيمة الأبوين، وأنها صدقة جارية لوالديها، وكأنها تبشرهما بأنها حسناتهما التي لا تنتهي..

لقد جذبني وأنا اقرأ ما بين قلب قارئة القرآن الفياض وبين صفات الأذن المؤمنة من رِباطٍ ربانيٍ، إلى حال الأمة وتدهورها بسبب عدم التركيز في القرآن الكريم..

فلو تدبر المسلمون وتفكروا عند الاستماع للقرآن الكريم وفتحوا قلوبهم لتغيرت الخريطة الإيمانية للأمة..

ثم وصف الكاتب ـ أكرمه الله ـ الفتاة اليتيمة وكيف حولها القرآن الكريم دُرَّة من نورٍ عندما يقول:

«لم يكن حجابها هو الأبيض بل كأنها كتلة من بياض، ليس بياض الملابس بل كانت أقرب ما تكون إلى هالة النور التي تلف الشيء فلا تري منه إلا بياضًا هو أشعة من نور»

وحقيقة أن القرآن يزيد صاحبه بهاءًا ونورًا على نور..

ثم أخذنا مرَّة أخرى إلى قصة واقعية حيث حفيدته وكانت سبب تسميته القصة «رأيت اللّه» حيث يقول:

«رأيتُ اللّهَ في آيةٍ من آياته تعالى التي يجريها في دنيا البشر لتتنزل السكينة على القلوب المضطربة وينزاح الهم عن النفوس الكسيرة»..

وقد أكد جزاه الله خيرًا على مفهومٍ مهم.. حيث إن ما يراه القلب أشد تأثيرًا على النفوس مما تراه العيون..

وأكد كذلك على الحنان الطبيعي والعطاء الرباني فيقول:

«حينما ارتمت ابنته بين ذراعيه كأنما سرى من جسدها الألم والعناء والتعب، فخف عنها الحمل وانزاحت الأثقال»..

وهـذا يـدفع الآبـاء إلى إعطـاء أولادهـم الفرصـة لهـذا الحنـان لأن الأبنـاء يحتـاجون إليـه، والأب القاسـي قـد يضـر أولاده عنـدما يحـرمهم مـن هـذا الحنان الطبيعي فيقعون في حبائل من يعطيهم الحنان المفقود في البيت..

وذكرنا بأهمية الابتلاء في حياة المسلمين، وكذلك أهمية الأوراد المأثورة في زيارة المرضى حيث يشكر الإنسان ربه على ما أنعم عليه من صحةٍ وعافيةٍ قد حُرِمَّ منها غيره..

ووجهنا كذلك إلى لطف الله بعباده المؤمنين، وكيف أن المؤمن يشعر بهذا اللطف فيأخذه إلى شكر الله وحمده فهذا هو النجاح عند الابتلاء..

ثم طاف بنا حول طبيعة النفس البُشرية من الخوف والوجل والجزع، حيث قال:

«ولله في كلِ ملمةٍ لطفٍ خفي.... يُدركه من يُدركه.. ويغفل عنه من غَفَلَ.. ولكنه حتمًا موجود»..

هذا اللطف الخفي الذي هو نعمة الله مع البلاء..

ولاحظت دليلًا على ذلك وهو حفظ الله لهذه الطفلة التي سقطت من الدور الخامس، فتلتقطها يد الرحمة، ومرجع ذلك إلى رحمة الله ولطفه بعباده المؤمنين وبصلاح الأهل جميعًا..

وفهمنا أنها معادلة بسيطة لمن يريد الخير لأولاده أن يصلح علاقته بربه فالله يحفظ أولاده..

جـزى اللّهُ الكاتـبَ خـيرًا فقـد عشـت بـين كلماتـه الرقيقـة والقصـص الواقعية والأسلوب الجميل وتعلمت كثيرًا من هذا القصص، وإن شاء اللّه يكون هذا الكتاب مفيدًا لأبناء الأمة الإسلامية..

د.. جمال الدين صلاح علوان

المقدمة

الحمد لله وحده
والصلاة والسلام على من لا نبي بعده
أما بعد:

فللدين الإسلامى خصائص وللمنهج الإسلامى مميزات.. وللتصور الإسلامى طبائع، وهو بهذه الخصائص والمميزات والطبائع لا بغيرها، بل هى جزء من تركيبته لا تنفك عنه أبدًا، ومن حاول أن يجرده منها إنما هو يُخرجه عن طبيعته التى نزل بها من السماء وجرده من سر قوته ومكمن عظمته، وبالتالي لا يمكن له أن يعمل في الحياة على النحو الذى أراده الله، وهو بهذا مثل بقية الأشياء كالماء والحديد والهواء فإنما تمايزت هذه الأشياء واحتفظت بكينونتها باحتفاظها بماهيتها وطبائعها.. فالماء نزل من السماء لا لون له ولا طعم ولا رائحة، ومن حاول أن يغير من طبيعته بإضافة شيء إليه كالخل، أو رائحة الورد ـ مثلًا ـ لم يعد يُسمى ماءًا.. إنما يُسمى حينها ماء خل.. أو ماء ورد.. وهكذا..

ومن أهم خصائص ديننا الحنيف الواقعية وليس ذلك متمثلًا في مراعاته للواقع البُشري للإنسان، من الناحية الجسدية والنفسية والروحية والتشريعية فحسب، بل واقعيته أيضًا في الناحية العقائدية الغيبية وإنه لأمر عجيب، حيث إن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم

الآخر والقضاء والقدر ضرورة من ضرورات الحياة، على الرغم من أنها قضايا غيبية وبدونها لا يمكن العيش ولا تستقيم الحياة..

وفي بعض أقوال الحكماء:

«لقد وجدتُ مُدنًا بلا حصون.. وبلا قِلاع.. ولكن لم توجد قط مدنٌ بلا معابد.. أو صوامع»..

وتلك هى الفطرة التى فطر الله الناس عليها لا تبديل لخلق الله، ودين الإسلام هو الدين الذى يتطابق مع الفطرة ويلتقي معها التقاءًا تامًا..

أقول هذا ونحن بصدد نماذج من قصص واقعي يُبين جانبًا من ضرورة هذه العقيدة الغيبية لاستقامة الحياة وتَحمُّل لأوائها ، ولكي نمضي قُدمًا نحو ما خُلِقَتْ هذه الدنيا لأجله.. ونحو ما خُلِقنا لأجله.. راضين فرحين مُستبشرين مستقبلين موعود الله ومقبلين على استكمال الحياة بصورة أنقى وأخلد وأطهر..

ولقد عشنا رِدحًا من الزمن سَيطَرَ فيه القصص الخيالي الهابط حتى ملأ حياتنا.. وأزاح ثوابت وقيم ومفاهيم إسلامية وحل محلها، حتى تربت عليها أجيالٌ، ونشأت في ظلالها، وأضحى الناسُ وبعضَ الوُعاظِ يستشهدون بما وردَ في المسلسلات والأفلام وكأنها مستندً يُرجع إليه، ويضربون لك الأمثال مما قَصَ عليهم..

وأرجو الله عزَّ وجلَّ أن تمتليء الساحة مرَّة أخرى بقصص واقعي يرسي مباديء وقيم ومفاهيم إسلامية، فقد ورد فى بعض الآثار:

قال على بنُ الحُسين:

«كُنَّا نُعَلَّمُ مَغَازِيَ النَّبِيِّ «ﷺ» وَسَرَايَاهُ كَمَا نُعَلَّمُ السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ»[1]

وفي رواية:

«عنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: " كَانَ أَبِي يُعَلِّمُنَا مَغَازِيَ رَسُولِ اللَّهِ «ﷺ» وَيَعُدُّهَا عَلَيْنَا، وَسَرَايَاهُ وَيَقُولُ: يَا بَنِيَّ هَذِهِ مَآثِرُ آبَائِكُمْ فَلَا تُضَيِّعُوا ذِكْرَهَا»[2]،

لأنه لا غِنى لمن يُريدُ الاقتداءَ به عن معرفةِ سيرتِهِ، والاقتداءُ أساسُ الاهتداءِ:

«لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كثيرًا»[3]..

وهذا الكتاب الذى بين أيدينا يمثل خطوة على الطريق وامتدادًا لمن سبقنا من الأدباء والعلماء المصلحين..

وإني على يقينٍ أن بين شبابنا من يملك قدراتٍ فائقة ومواهبَ فذة تحتاج لمن يوجه طاقتها للإفادة منها في هذا الجانب القصصي الواقعي لنسد ثغرةً هائلةً نفذ منها الخصوم استطاعوا من خلالها أن يصلوا إلى أكثر الأمة وأحدثوا انتكاسةً ليست هينة لما في القصص من قدرة على تجسيد المعنى المراد بأسلوب سهل وأداء مشوق وطرح جذاب..

---

[1] الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي..

[2] نفس المرجع السابق..

[3] سورة الأحزاب: ٢١..

كما أنى لأتساءل:

من منا أبًا كان أو أمًا يستطيع أن يحكي لأطفاله كل يوم قصةً قصيرة قبل منامه تُرسي فيهم مبادىء وقيم؟!

إنى أهيب بكل من تصل إليه رسالتنا ولديه القدرة أن تتضافر جهوده مع الآخرين.. ويُجند موهبته لنصرة دينه وسد هذه الثغرة ..

والله أسأل أن ينفع المسلمين بهذا الكتيب ..آمين..

دكتور

السيد مصطفى السيد

***

التمهيد

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خير خلقه نبينا محمد «ﷺ» وعلى آله وصحبه، ومن استنَ بسنته واتبعَ هُدَاه..

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد «ﷺ» وشر الأمور مُحدثاتِها، وكل مُحدثةٍ بدعة، وكُلَ بدعةٍ ضلالة..

وبعد..

فلم تزل مشاعرُ الناس وأحاسيسهم ـ بالنسبةِ لي ـ لغزًا لم استطع فك رموزه، أو كشف خباياه..

ولقد حاولت أن أتخذ من نفسي نموذجًا علَّني أتمكن من الغوص في أغوار نفسي فأطلع إلى ما لم يمكنني الاطلاع عليه عند غيري، وياله من أمر صعب، وياله من مطلبٍ عزيز المنال..

فها أنا ذا وقد طالت رحلة بحثي وسياحتي بين أمواج النفس، لا تهدأ موجٌة حتى تدفعها موجٌة أخرى، فلا تكاد النفس تستقر على حال..

وكم أشرقت في العقل أشعةٌ من الفهم ظننتُ معها أنني قد نجحت في اقتناص ما كنت أصبو إليه، وأن رحلة بحثي قد آتت ثمارها، ولكن هيهات هيهات..

وعجيب هو حالي وحال مشاعري، فكيف بي إذا أردت أن أقرأ مشاعر الناس، فالحُب والكُره والحزن والفرح، وغيرها من كل ضدين، كم

لاح لي مرةً ومرات أن كل وصف منهما واضحةٌ معالمه، فإذا ما أردت أن أصوره لم أجد إلا ظلالًا لا حدودَ لها..

فها أنا في وقت فرحي أو وقت سعادتي أحاول جاهدًا أن أنقل ما تختلج به نفسي، فلا أصل إلى مرادي على الوجه الذي أريد أبدًا، وليس هذا بسبب قصور من جهتي فقط ولكن أيضًا لأن الصورة التي أنقلها لا تراها العيون المختلفة على وضع واحد مُطلقًا..

فبالنسبة لأمور المادة يدرك الناس الأبعاد والأحجام والأوزان وغيرها على نحو واحد، لأن المقاييس التي يحتكمون إليها واحدة، ولكن هل للحب وزن أو حجم يُقاس به، وهل الألم والإحساس يمكن أن يُدركَ الناس عمقه أو مداه..

وهل شعوري بالسعادة له نمط واحد لا يتغير بتغير الأحوال؟

إن هذا لم يحدث قط، فاللفظ واحد والمعاني متعددة، فكم من إحساسٍ عُبِّرَ عنه بلفظِ السعادة، ولكنها أبدًا لم تكن هي نفس المشاعر والأحاسيس في كلِ حال..

فهل تنقص السعادةُ وتزداد، وما هي المؤثرات التي تجعل قدرها يتغير، وهل يملك الإنسان في كلِ وقتٍ وحينٍ أن يفعل به شيئًا يصل به إلى مراده من التحكم في السعادة، أو زيادتها؟

كنت أظن أن قول المولى تبارك وتعالى: «وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ»[1] يُقصد به النفس البُشرية ككل، وليس أن ينظر الإنسان إلى نفسه هو، وظننت التحدي أن الإنسان مهما بلغ من العلم فلن يحيط بما في نفوس الآخرين، ولكن لم أنتبه إلى أن التحدي يشمل الإنسان نفسه، بالنظر إلى ذاته ومشاعره وأحاسيسه، فليس العجز فقط في كيفية التعبير عن حقيقة المشاعر بلفظٍ لا يختلف فيه أحد، بل أيضًا لا يدرك أي أحدٍ حقيقة مشاعره، وكيف هي، وما هي المؤثرات فيها، وهل كل إحساس مختلف تمامًا عن الإحساس الآخر، أم أن كل المشاعر تمتزج مع بعضها، دون أن يتحرر منها إحساسٌ بصورةٍ مستقلة، فلا يتأثر بإحساسٍ غيره، ولا يؤثر هو في غيره من الأحاسيس؟

لم لا يكون عالم المشاعر والأحاسيس معنيًا في قوله تعالى:

«فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ❖ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ❖ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ»[2]

فإن قسمه سبحانه يدل على عظيم آياته فيما يُقسمُ به..

ولو صحَّ هذا الفهم فإن المشاعر والأحاسيس تكون من عظيم آياته التي تثبت صدق ما جاء به الوحي، وهذا يدل على أنها مما لا يمكن للبشر أن يعلموا حقيقتها على وجه اليقين مهما حاولوا..

---

[1] سورة الذاريات: ٢١..

[2] سورة الحاقة: ٣٨ – ٤٠..

ولقد توقفت أكثر من مرة مُتفكرًا لمَّ قال تبارك وتعالى: «وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ» وكان المتبادر إلى الذهن أن يُقال: أفلا تتفكرون؟

ثم قادني كلام الله تعالى المُعجز الذي ليس كمثله كلام الخلق أن أبحث عن بعض مواطن الحِكمةِ في اللفظِ القرآني بتلك الآية المباركة..

فغلب على ظني أن قوله تعالى: «أَفَلَا تُبْصِرُونَ» أكثر دلالًة على التحدي، من لفظ «تتفكرون» لأن البصر يمكنه أن يرى كل مكونات الجسد البُشري كاملًة غيرَ منقوصة، ومع هذا فإن ما تراه العين ـ سواء بشكلٍ مباشر أو عن طريق الأجهزة ـ تعجز تمامًا عن إدراك حقيقته، ما دام الجسد على قيد الحياة، فإذا ما سُلِبَت منه الحياة، أدرك العقل والفكر حقيقة ما تراه العين على وجهِ اليقين، لأنه أصبح عبارَة عن جسدٍ ماديٍ يمكن لكُلِ البشر أن يصنعوه، ولهذا فإن دلالة «أَفَلَا تُبْصِرُونَ» كأنها تقول ها هي أعينكم ترى كل شيء، فهل رأته حقًا؟ وهل أحاطت به علمًا؟..

بينما:

أفلا تتفكرون تشمل القريب والبعيد، وما تراه العيون وما لا تراه، ولهذا فمن المستوعب أن يكون هناك ما لا تدركه العقول، بينما التحدي الأكبر أن تكون ما تراه العيون هو ما لا تدركه العقول، والله أعلى وأعلم..

إن هذا الجسد المادي لا مكان للمشاعر والأحاسيس فيه، فهي صنعة الخالق سبحانه وحده، وهي موضع الإعجاز والتحدي، ولهذا فكل ما

نحاول تصويره من معاني المشاعر والأحاسيس ما هو إلا محاولات مهما كُتِبَ لها النجاح فلن تصل إلى الغاية المرجوة، وسوف تظل رحلة البحث عن المشاعر مُستمرة ما دامت على الأرض حياة..

ومن هنا أدركت أنني لم أصل إلى الحقيقة التامة لما أبحث عنه، فيما بلغته من حديث الذكريات، وغلب على ظني أن حديث الرسول «ﷺ»:

«لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»[1]

يمكن أن يُفهم منه أن الصعوبة التي تحدث عنها الحديث إنما مرجعها إلى عدم معرفة كل منا نفسه على وجه اليقين، ولهذا يعجز عن التحكم في أحاسيسه ومشاعره على نحو ما يريد، ويحتاج الأمر منه إلى جهد جهيد، حتى يكبح ما يترتب على الغضب من أثر ونتيجة..

إن كل صناعات البشر تحتكم دائمًا إلى نظام منضبط، لا يتغير من حال إلى حال، ولا من صانع إلى صانع آخر، لأنها مكونات مادية لا مكان للمشاعر فيها..

بينما صنعة الخالق سبحانه يمتزج فيها العاملان جميعًا المادة والمشاعر، ولو نجح البشر في معرفة الجزء المادي فهم عاجزون تمامًا عن إدراك ما وراء ذلك، فإن الإنسان نفسه مهما بلغ قدره في العلم يعجز عن إدراك هذا الجزء من نفسه فكيف يكون حاله تجاه الآخرين..

إن هذا العجز هو الذي شجعني لأكتب هذه الذكريات، حتى يمكنني من خلالها نقل مشاعري والتي قد تكون متشابهة في أحوال مختلفة،

---

[1] متفق عليه..

ولكن لم أستطع التعبير عنها بما يعرفها تعريفا يفهمه الآخرون، وقد تكون قمة سعادتي في أحيان كثيرة هي مشاركة الآخرين..

فرأيت أن حديث الذكريات هذا هو الوسيلة الممكنة التي تسمح لي ببعض مما أرجوه وأسعى إليه..

لم يشغلني الجانب الحسي في ذكرياتي، بل رجوت الله أن أنجح في تسجيل الجانب الخفي في نفسي، والذي لا تراه الأعين ولا تحس به الآذان..

وأما الغرض من ذلك فليس نابعًا من زهوٍ أو رغبة في التميز، بل هو محاولة للتأسي بنهج السلف الصالح، حيث كانوا يتعهدون كثيرًا مما يجري في حياتهم بالاهتمام والتسجيل، لما يحمله من المعاني التي تظهر جانبا مما جاءت الشريعة الغراء، بيانا لعلو شأنه، ولدعوة الناس إلى التحلي به..

وفي أحيان كثيرة تنجح الحكاية في غرس نبتة طيبة في النفس، تعجز عنها كل السبل المباشرة..

ولقد وجدت في كلام الأولين ما يؤكد هذا المعنى، ومن هؤلاء الإمام الماوردي حين يقول بعد خُطبة الكتاب ـ أدب الدنيا والدين ـ: «أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ شَرَفَ الْمَطْلُوبِ بِشَرَفِ نَتَائِجِهِ، وَعِظَمِ خَطَرِهِ بِكَثْرَةِ مَنَافِعِهِ، وَبِحَسَبِ مَنَافِعِهِ تَجِبُ الْعِنَايَةُ بِهِ، وَعَلَى قَدْرِ الْعِنَايَةِ بِهِ يَكُونُ اجْتِنَاءُ ثَمَرَتِهِ، وَأَعْظَمُ الْأُمُورِ خَطَرًا وَقَدْرًا وَأَعُمُّهَا نَفْعًا وَرِفْدًا مَا اسْتَقَامَ بِهِ الدِّينُ

وَالدُّنْيَا، وَانْتَظَمَ بِهِ صَلَاحُ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى، لِأَنَّ بِاسْتِقَامَةِ الدِّينِ تَصِحُّ الْعِبَادَةُ، وَبِصَلَاحِ الدُّنْيَا تَتِمُّ السَّعَادَةُ»[1]

وهذه أيضًا هي الغاية التي من أجلها شرعنا في كتابة حديث الذكريات، وبعيدًا عما ورد في الذكريات من أسماء وأشخاص، قد لا تعنى إلا عددًا محدودًا من دائرة معارفهم، فإن هذه الأسماء ما هي إلا أمثلة، يمكن الاستعاضة عنها بما يُناسب كل قاريء، فإن الاسم ليس مقصودًا لذاته، بل المقصود هو المعنى الذي تحمله الذكرى..

وها هو الإمام الماوردي يبين حاجة النفس إلى مختلف الآداب والفنون فيقول: «وَقَدْ تَوَخَّيْت بِهَذَا الْكِتَابِ الْإِشَارَةَ إلَى آدَابِهِمَا، وَتَفْصِيلَ مَا أُجْمِلَ مِنْ أَحْوَالِهِمَا، عَلَى أَعْدَلِ الْأَمْرَيْنِ مِنْ إيجَازٍ وَبَسْطٍ أَجْمَعُ فِيهِ بَيْنَ تَحْقِيقِ الْفُقَهَاءِ، وَتَرْقِيقِ الْأُدَبَاءِ، فَلَا يَنْبُو عَنْ فَهْمٍ، وَلَا يَدِقُّ فِي وَهْمٍ، مُسْتَشْهِدًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ـ جلَّ اسْمُهُ ـ بِمَا يَقْتَضِيهِ، وَمِنْ سُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ـ بِمَا يُضَاهِيهِ، ثُمَّ مُتْبِعًا ذَلِكَ بِأَمْثَالِ الْحُكَمَاءِ، وَآدَابِ الْبُلَغَاءِ، وَأَقْوَالِ الشُّعَرَاءِ؛ لِأَنَّ الْقُلُوبَ تَرْتَاحُ إلَى الْفُنُونِ الْمُخْتَلِفَةِ وَتَسْأَمُ مِنْ الْفَنِّ الْوَاحِدِ»[2]

وهكذا يكون حديثُ الذكريات وسيلة من الوسائل التي تريح القلب وتُبعد السأم عن النفس..

---

[1] أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)..

[2] المرجع السابق..

ومن أجل ذلك أحاول مُستعينًا بعونِ اللّه تعالى وهُداه، أن أُزيِّنَ ذكرياتي تلك بعطر الشريعة وأريجها لتكون قالبًا لنصوص شرعنا من قرآنٍ كريمٍ وسُنةٍ مُطهرة، وبيان ما تحمله هذه النصوص وتحُث عليه من مكارم الأخلاق وحلو الصفات.. ولقد حاولت قدر المستطاع أن أُخاطب القلب والمشاعر لتكون هي طريقي إلى الفكر والتدبر، ولعل هذا هو ما قصد إليه الإمام المسعودي بقوله: «إنه علمٌ يستمتع به العالم والجاهل، ويستعذب موقعه الأحمق والعاقل، فكلُ غريبةٍ منه تُعرف، وكل أُعجوبةٍ منه تُستظرف، ومكارم الأخلاق ومعاليها منه تُقتبس»[1]

وككُلِ عملٍ بُشري لا يمكن أن يصل بشر ـ عمل عملًا ما ـ إلى مُبتغاه على النحو الذي لا يحتاج معه إلى تبديل أو تغيير، وهكذا أنا، لا أكاد انتهي من شيءٍ سجلته إلا وأحاول أن أُحَسنه مرَّة أخرى قدر المستطاع، ولو عدتُ إليهِ مرَّة أخرى لتملكتني نفس الرغبة في التعديل والتبديل، ولكن لا مناص من التوقف عند حدٍ ما، وهكذا توقفت، دون أن أصل إلى ما أتمناه، ولهذا لا أملك إلا أن أدعو اللّه تعالى أن يعفو عما بدر مني من خطأ أو تقصير، وأن يفتح لهذه الذكريات قلوبَ عبادهِ المخلصين، لتنالَ من قلوبهم موضعًا طيبًا، نرتجي به جميعًا مثوبة اللّه تعالى وعفوه ورضاه، وعلى اللّهِ قصد السبيل..

دكتور

سيف الإسلام حسين عبد الباري

[1] مقدمة مروج الذهب..

١

المتحابون في الله

« طلال: أيها الحبيب.. قبل أن تغرب الشمس.. التقينا على قدر »

قبل أن تغرب الشمس تكتسب الحياة حالة من الهدوء، لا هو هدوء الليل وسكونه، ولا هو ضجيج النهار وصخبه، ولكن هو هدوء ينطق بالحياة أو حياة تنطق بالهدوء، وهي حالة تكون النفس فيها سهلة طيعة في الاستجابة لما يحيط بها من مؤثرات وأحداث، وهكذا كنا..

على خطى السلف الصالح:

فقد التقينا في هذا اليوم، بقَدَر الله تعالى، ولكن دعني أيها الحبيب ـ قبل أن أخوض في الذكرى ـ أبيِّن أن هذه القطوف من ذكرياتنا مع أنها تخصنا سويًا، إلا أنني ما قطفت منها إلا ما يحمل من المعاني ما يمكن أن ينتفع به عامة من يطلع عليه، فليست الذكرى هنا إلا وسيلة لإظهار مكرُمَّة من المكارم التي نبهنا إليها الشرع، وحثنا على التحلي بها، فبمثلِ هذه الذكريات نتأسى بما نقله إلينا أهل العلم ـ رحمةُ اللهِ عليهم ـ من حياةِ الصحابة والتابعين لهم بإحسان، والأئمة الذين ندين لهم بالفهم الصحيح لأحكام ديننا، فهي ذكريات نبتغي بها إعلاء شرع الله فيما بيننا، حتى وإن كانت من الأحداث التي تجري في حياة كل أحد، فهي لا تخلو من أثرٍ من آثارِ الشرع، لو فَطِنَ إليه الناسُ لسارت حياتهم كما يُحب الله ويرضى، فهذا هو شرعُنا الحنيف كما أخبر عنه سبحانه:

«قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»[1]..

[1] سورة الأنعام: ١٦٢..

وكأنما تنوع الذكريات من هنا وهناك، هو من قبيل تنوع دروب الحياة، التي لا حصر لها، ومع أن لكُلِ دربٍ محبيه ومريديه، إلا أنها ليست جميعًا على نفس المثال، بل إن منها فقط طريق واحد هو الذي يبتغى بالسير فيه الرضى والقبول بإذن الله تعالى، فقد روى سيدنا عَبْدُ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، رضي الله عنه، قَالَ:

«خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ «ﷺ» خَطًّا، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ» ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: "هَذِهِ سُبُلٌ - قَالَ يَزِيدُ: مُتَفَرِّقَةٌ - عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ"[1]، ثُمَّ قَرَأَ: - وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ»[2]..

ومع أن السائرين على كل دربٍ كُثر، لا يكاد يحصيهم عد، إلا أن معيار القِلة والكثرة لا قيمة له فيما نبتغي الحديث عنه، ولكن المعيار الحق الذي نؤمن به، أن نكون مع من خصهم الله تعالى بقوله:

«وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ»[3]..

وما لنا لا نطمع أن نكون معهم وقد قَالَ رسول الله «ﷺ»:

«إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ

---

[1] مسند أحمد، وقال الشيخ الألباني: حسن..

[2] سورة الأنعام: ١٥٣..

[3] سورة التوبة: ١٠٠..

الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ ـ أُرَاهُ ـ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ»[1]

وها نحن نسأل الله تعالى الفردوس الأعلى من الجنة مع الذين رضيَّ اللّهُ عنهم ورضوا عنه، مهما كانت قِلة عددهم، فهم الذين نطمع في السير على دربهم، وهم الذين نتقرب إلى اللّهِ بحبهم، ونحمد الله أن استقر في القلب مكانهم..

فكم من صاحبٍ أو رفيقٍ طالت صحبته ورفقته لسببٍ أو لآخر، ومع هذا لم ينقش في القلب أو العقل ما يجعل له من الخصوصيةِ مكانًا، وسُرعان ما تخفت المشاعر وتتلاشى الذكرى شيئًا فشيئًا، إذا ما تباعدت المسافات، وانقطعت فيما بيننا المعاملات..

ولكن هؤلاء الذين احتواهم القلبُ، وانشغل بهم العقل، أبدًا لا يغيبون، فقد أصبحت رؤياهم بالقلبِ وليس العين، وسماعهم بالعقلِ وليس بالأُذُن، وهكذا كان حالنا منذ أن التقينا وأثمر لقاؤنا هذه الأخوة والمحبة في الله تعالى..

وكما يُولد كُلُ شيءٍ صغيرًا ثم ينمو رويدًا رويدًا، كذلك الصداقة أو الأخوة في الله التي ربطت بين قلبينا أنا وأخي وصديقي «طلال» ، حيث التقينا في أولى سنوات دراستنا الجامعية بمدينة المنصورة، وتم اللقاء في جوٍ من الصفاءِ والسكينةِ التي غشيت نفوسَنا، فكان اللقاء مولد مرحلة من مراحل العمر هي الأهم وهي الأفضل بالنسبةِ لي، ولله الحمد والمِنة..

---

[1] صحيح البخاري..

بُشريات الخير:

وكما أن لكُلِ شيءٍ طيبٍ مُبشرات تسبقه، كذلك كان لقاؤنا كأنما كان حال الدنيا في وقت لقائنا بشرى لنا "قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ «ﷺ»: أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ»[1]..

وكم من بُشريات لا يفطن إليها أو يستشعرها بمشاعره إلا قليلٌ من الناس، وإن لم يدرِ لها تفسيرًا، كذلك كان لقاؤنا أيها الحبيب، كانت الدنيا كأنما ترفرف بالبشرى حولنا من كل اتجاه..

كلما طافت هذه الذكرى بمخيلتي، عجبت كيف غاب عني حينها أن كل شيء حولنا كان يرقص بهجًة وفرحًا، مُستبشرًا ومُبشرًا بلقائنا، والذي أتي على غير موعدٍ منا، فتوافقت الأسبابُ لتجمع بيننا، بقدرِ اللّه تعالى، لنكتب سويًا قصًة عامرًة بالصدقِ والإخلاص، والحبِ والعرفان..

فكم من صديقٍ نشأنا بالجوار سويًا منذ أن كُنا صِغارًا، ونبضت قلوبنا بالحب سويًا، وانتقش الودُ فيها لكُلِ من حولنا، وكم جمعتنا سنواتُ الدراسةِ مع أصدقاءٍ آخرين منهم من كان كالنسيم الهادىء والبلسم الرقراق، فلم تكن قلوبنا بعد قد تغشاها ما يُعكر صفوها ونقاءها..

ولكن أبدًا لم نكن سويًا صورة لواحدة من تلك الصداقات، بل كانت صداقتنا شيئًا آخر، وكأنها قبس من بقايا الطيبين، استحق أن تتيه به حياتنا فخرًا واعتزازًا، وكيف لا، وكل شيء في حياة الناس قد فقد

[1] صحيح مسلم..

رونقه وجماله، إلا البقايا من القليل النادر، الذي تصفو به الدنيا وترق وتلين، وصداقتنا من هذا القليل، الذي بشرت به الدنيا واستبشرت..

إنها دنيانا نحن وليست دنيا غيرنا، ولا تعجب من هذا، فإن دنيا كل فردٍ هي في قلبه ووجدانه، قبل أن تكون ما تلمسه حواسه وجوارحه، أو يحيط به في ذهابه وإيابه، ولولا أنها دنيانا نحن لكنا صورة متكررة لصورٍ عديدة، ولكن لم يكن الأمر كذلك، فكم من أُناسٍ عاشوا سويًا سنينًا عديدة ثم افترقوا فلم يذكر منهم أحد أحدًا، ولكن في نفس الزمان والمكان التقينا نحن، لا فرق بيننا وبين الآخرين إلا أن قلبينا تآلفا وتحابا في الله، فلم يفترقا مهما طال بنا البعاد..

وسبحان الله فإن قلوب العباد «بين أُصبعينِ من أصابعِ الرحمن.. يقلبها كيف يشاء» فالجسد وإن كان واحدًا بالنسبةِ لعامة البشر إلا أنه في الصورة فقط، دون سائر المشاعر والصفات، وقد التقى في نفس هذا المكان ـ الذي يفصل بين مدينة المنصورة وبين ما حولها من القُرى ـ آلاف الطُلاب، ثم مرت سنوات الدراسة، فلم تبق صلٌة ما إلا بين القليل منهم..

ولولا تباين طبائع البشر لتغير وجهُ الحياةِ، بل لعلها لم تكن لتكون حياة بحق، فمهما كان الاختلاف أحيانًا قاسيًا، إلا أنه ـ مع هذا ـ من أسبابِ الجمال في الحياة والرغبةِ فيها، ولو سارت الحياةُ على لونٍ ونمطٍ واحد لملها الناسً وزهدوا فيها، ولكن لله في خلقه حِكم لا يمكن أن تغيب، ومنها الخلاف والاختلاف الذي يُكسب الحياةَ الجديد بعد الجديد، مما يجعل الناس يُقبلون عليها يستكشفون خباياها، في حرصٍ وإصرار..

ومن هنا تمر البُشرى على قومٍ فمنهم من يقفز بها سرورًا، كأنما يُنافس الطيرَ في السماء، ومنهم من يرق بها قلبُه كما يحن الحبيبُ إلى الحبيب، ومنهم من لا يُلقِ لها بالًا وكأنها لم تكن، ولعل منهم من يزدادُ بها شدةً على شدته..

وكأني أستحضر معك حديث الرسول «ﷺ»:

«إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِيَ اللَّهُ بِهِ عزَّ وجلَّ مِنَ الْهُدَى، وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِيَ اللَّهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»[1]..

وبالها من صورةٍ مُبهرةٍ وكأنها تتحدث عن نفس المكان الذي التقينا فيه، حيث تتجلى خفايا النفوس والقلوب، فتستبشر بالخير منها قلوب، ترى في كلِ شيء حولها حُسنًا وبهاءً لم تطّلع عليه من قبل، بينما تغفل عن كلِ بشرى قلوبٌ أخرى، مهما جادت بأسرارها الأشياء..

فما لنا لا نطمع أن تكون البشرى التي تزفها الدنيا من حولنا هي بُشرى خاصة بنا، وما لنا لا نطمع أن نكون من هذه الطائفة الطيبة، التي بشرَ بها الحديثُ الشريف، ونحن نلمس في كلِ ما حولنا آياتٍ وبُشريات،

[1] صحيح مسلم..

ينطق بها هذا الجو الساحر البديع، إذ لم تكن الشمس قد بدأت في الغروب بعد، ولكن كانت تتهيئ له، واكتسى وجهها بلونٍ هاديء حنون، أضفى على المكان كله مشاعر السكينة والطمأنينة، التي تهدهد النفسَ.. وتوقظ فيها كوامن الود والمحبة والرقة والصفاء..

وللبشرى دليل:

صفحة الماء أمام أعيننا تتماوج في رفقٍ وأناةٍ فتنعكس عليها أشعة الشمس الحانية وكأنها لآليء مُتراصة، وتمتد ظلال الأشجار على سطحِ الماءِ وكأنها ترسم لوحًة تنبض بالحياة، حين تتمايل في خفرٍ وحياء..

دقائق من الوقت مرت وكأنها تقفز قفزًا، ويالها من نفسٍ تلك التي يمر عليها الوقت السعيد وكأنه طرفة عين، مهما كان طول الزمن فيه، وعلى العكس من ذلك تئن من طوله إذا ما كان غير سعيد، مهما كان قصيرًا، وهكذا هي النفس، لا تحمل ميزانًا جامدًا يقيس الأمور على ما هي عليه، ولكن هي مشاعر نابضة، تلتقط الأشياء فتذوب داخلها وتمتزج بما تذخر به من أحاسيس ومشاعر، فيتسع الوقت ويضيق، دون أن يتأثر بمقياس الزمن..

كانت لحظات تفصلنا عن اللقاء الأول، الذي أصبح فيما بعد حديثًا يُضرب به المثل لكُلِ حبٍ صادق لم يُبتَغَ بهِ إلا وجهَ اللّه تعالى، حيث يقال: «زي طلال.. وسيف»، أو «زي سيف وطلال»..

كُنا شبابًا لم تتضح أمامنا مُبشرات اللقاء، والتي كانت كأنما تقول: سيرا على بركةِ اللّه، فلن يكون لقاؤكما إلا بالخير، وقد تحقق ما

جاءت به البشرى، والتي لم نفطن إليها إلا بعد أن جنينا ثمارها، فعسى أن نكون ممن كانت محبتهم سببًا في أن يجدوا حلاوة الإيمان:

"ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»[1]..

فقد كان حُبنا خالصًا لوجهِ اللّهِ تعالى لم نبتغِ به شيئًا سواه..

في ذلك اليوم ـ الذي مرَ عليه ما يزيد عن الأربعين عامًا، كُنا قد تأخرنا في الجامعة عن الوقت المعتاد، حتى أصبح عدد الطُلاب الموجودين من حولنا محدودًا، حيث لم تكن المنصورة قد استقلت كجامعة بعد..

وكان المكان مازال مُحاطًا بالأرضِ الزراعية من كلِ جانب، بما تحمله من أشجارٍ وخُضرة، إذا ما نظرت إليها من أفقٍ بعيد، لاحت كأنها بُسْطٌ طُرِحَتْ على الأرضِ في تناسقٍ بديع، فإذا ما اقتربت منها رأيت تمايل أعواد الزرع مع لفحات النسيم، وتناثر الزهر على فروع الأشجار، وأريج العطر يفوح من كل جانب، فلا تملك إلا أن تقول: سبحان الخلاق العظيم، الذي هيأ نفوس البشر بما يمكنها من تذوق هذا الجمال الذي تزدان به المنطقة من كل جانب، وقرص الشمس يبدو من أفقٍ بعيد لا يحجبه عن العين شيء، يشع ضوءًا خافتًا، كأنما يُودع النهارَ قبلَ الرحيل، وتسبيح الطير وهي تعود إلى أعشاشها، أو غير ذلك من آياتِ الحسن والجمال في كلِ ما تحمله الحياة حولنا من عجائب صنع اللّه..

---

[1] صحيح مسلم..

كثيرٌ من الخلقِ يُخطئون عندما يظنون أن صنعة البشر، من مبانٍ هائلة الحجم، أو مواصلاتٍ عظيمة السرعة، أو غير ذلك من دقيقِ صُنعِ البشر، الذي تتعدد فيه معاني الروعة والجمال، يُخطيء من يظن أن هذه الصنعة خالصة للبشر، فيعظمون من شأن مبتكريها ومبدعيها، ويغفلون عن صاحب الفضل والتفرد تبارك وتعالى..

فهو سبحانه الذي صنع البشر ـ إن جاز التعبير ـ وهو الذي وهبَ البشرَ المواهب والمزايا التي تمكنه من النبوغ والإبداع، ولولا هذا لما تذوق جمالًا ولا أبدع حسنًا، فكان حق الخالق أن يُذكر أولًا عند الإشادة بشيءٍ مما أنتجته عقول البشر..

فكم من مخلوقات تسمع وتبصر، كما يسمع البشر ويبصرون، ولكن هل يوجد غير البشر من يمكنه التقاط معاني الحسن والجمال وتذوقها على وجوهٍ شتى لا يكاد يحصرها وصف، ولا يحدها حد، بل يختلف تذوقها بحسب طبيعة كل إنسانٍ وصفاته، ولكن في كلِ أحوالها فإن تأثر القلب والوجدان بمعاني الحسن والجمال ينقله من ضيقِ الواقع إلى رحابة الخيال الواسع بما يحتويه من صفاءٍ وهدوءٍ ونقاءٍ وراحة..

فالجمال ليس مجرد صورة تراها العين، بل روح تسري في كيانِ الإنسان تحمل بلسمًا يشفي القلوب، ويمحو عن النفس العناءَ والتعب..

ولست أدري هل كان اختيار موقع الجامعة في المنصورة مقصودًا به أن يكون لوحة فنان تزدان هكذا بكل آياتِ الحسن والجمال، لتكون

عونًا لطُلاب العلمِ على يُسرِ الفهم وسرعة التحصيل، أم كان اختيارًا لسببٍ آخر..

كم كان الطريق طويلًا في غير هذا اليوم عندما نغادر بعد انتهاء المحاضرات عائدين إلى بيوتنا، ولكن في هذا اليوم كان كأنه تغير واختلف فقد كانت خطواتنا كأنما تعزف نغما عند المسير تتجاوب معه أغاريد الطير الهامس الرخيم، وكأنها تتذوق الجمال الساحر كما نتذوقه نحن، أم لعلها تسبح بحمد من أبدع هذا الجمال، فشاركت نغمات صوتها في كمال الصنعة، وسحر الآذان..

وكيف لا وقد أحكم الخالق صنعته على وجه فائق الجمال:

«صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ»[1]..

والإتقان ليس قاصرًا على دقة الصنعة، بل وجمالها أيضًا، "إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ"[2]، وإذا أحب اللهُ شيئًا جمله، وهل يجاريه في صنعته أحد؟! تنزه الله عن ذلك وعلا علوًا كبيرًا، ومن أجل ذلك كان التفكر في آيات الله في كونه عبادة:

«وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ»[3]..

حتى ما أبدعه الخلق من صنعة أليست دليلًا على عظمة الخالق وجلاله سبحانه، أليس المخلوق الذي أبدع شيئًا وجمله، أليس هذا المخلوق صنعة

---

[1] سورة النمل: ٨٨..

[2] صحيح مسلم..

[3] سورة آل عمران: ١٩١..

الخالق سبحانه، وكل جمال جرت به يداه إنما هو من نعم الخالق عليه، وهكذا كل جميل حولنا..

الطريق كان يُقسمُ الكلياتَ الأربع ـ في ذلك الوقت ـ إلى قسمين:

- الحقوق في الخلف وتليها الهندسة..
- ويقابلهما الزراعة والتجارة..

وبين هذه وتلك الحدائق المُزهرة، والتي كانت مع الطُرقات بين المزارع من حولنا قِبلَة لكُلِ الطُلاب الذين ينتظرون محاضرةً مازال الوقت عنها بعيدًا، فيغتنمونها فرصةً للاسترواح في هذه الحدائق وبين الزراعات المنتشرة حول تلك الكليات، فهنا اثنان يجلسان تحت ظل شجرة.. وآخران يتمددان على نجيلِ الحدائق، وآخرون بأيديهم كتب يراجعون فيها بعض الدروس، جيئَة وذِهابًا، وكلٌ قد وجد مغنمه ومبتغاه..

ولو تفكرنا في كلِ ما حولنا لأدركنا أن طبائع الأشياء التي تحيط بنا من كل اتجاه إنما هي مِنحةً من الخالق جلَّ في علاه، ولو شاء لتغير وجه هذه الأشياء كلها، فما أضفت بهجةً ولا أوجدت جمالًا، ولكنها آلاء اللّه تعالى ونعمهِ على الخلق، وتُصور الآيات صورة منها:

«وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ»[1]

باللّهِ عليك أيها الحبيب لا تتلوها بعينيك، ولا تسمعها بأذنيك، بل عِشها بروحك وإحساسك، بقلبك ووجدانك، عِشها وكأنك تحياها، أو تحيا

[1] سورة الأنعام: ١٤١..

هي فيك، إنها ليست مجرد كلمات وألفاظ، وإنما هي الروح والحياة، الصِلة بينك وبين الخالق سبحانه، بلا وسيطٍ أو شريك، فكُن كما شِئتَ في معيةِ اللّهِ تعالى، وتنعّم بقرآنه.. تتنزل عليك فيوضات رحماته، وتتكشف لك بدائع أسراره، فهل رأيت مثل هذا الإعجاز؛ هل هي الصورة رائعة الحسن والجمال، أم هي النغمات التي تسري في الكيان كله، أم هي كل هذا وزيادة؟

قبل أن تأسر منظومة الكون والحياة المتقنة في دِقةِ وإعجازِ مشاعرك كلها وتستحوذ على وجدانك، لابد أن تفكر في أنها لم تنشأ من تلقاء نفسها بل هي آية من آياتِ الخالق سبحانه لتتذكر دومًا أن جنة الدنيا بكل ما فيها من روعةٍ وإبهارٍ لا تمثل شيئًا من جنةِ الآخرة التي فيها ما لا عينٌ رأت.. ولا أذنٌ سَمِعَتْ.. ولا خطر على قلبِ بشر..

وكأنَّ الله عزَّ وجلَّ ـ وهو أعلم بمُراده جلَّ في عُلاه ـ يدلنا على عظيم صنعته بما أنشأ عليه الحياة وما تحويه من معاني الجمال، ثم فطرنا على نعمةِ تذوقه ليُقربَ إلينا صورةَ جنته التي وعدَ بها عباده المؤمنين..

عندما تَسْبَحُ مشاعرك في رحابِ كتابهِ الكريم ستتعجب كيف أنه يُطالعَكَ في كلِ آياته بمعنى من معاني الحسن والجمال التي لا يغفلها القلب ولا تخطؤها الأذن..

«وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ»[1]..

[1] سورة الرعد: ٣..

هل تذوقت مثل هذا الحُسنَ والجمالَ قط؟!

هل يُمكن أن يكون لغير حكمةٍ مقصودة؟!

كلا واللّهِ، بل إن آيِ الكتاب الكريم يؤكد ما يدور حولك من آياتِ اللّه في الخلق، والتي تنبض بالحياة في كلِ غصنٍ تحمله شجرة، وكل ورقةٍ يهتز بها نبات، وغير ذلك مما لايحصره عد، فسبحان الخلاق العظيم:

«وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ»[1]..

مع هذا الفضاء الواسع وصدى الصوت الذي يأتي من حينٍ لآخر لبعض المزارعين الذين أنهوا عملهم في أراضيهم وهم في طريق عودتهم إلى بيوتهم، يأتي الصوت خافتًا ضعيفًا، لا يُعكر صفوَ السكون الذي يلُف منطقة الجامعة في هذا الوقت من اليوم، بل لعله يجعله ينطق بالحياة، حتى وإن كان ساكنًا..

وها نحن وقد تجمع القليلُ منا، وانصرفَ البعضُ الآخر، نلتقي في هذا المكان الذي يمثل نهاية شارع البحر ـ كما يسمونه ـ انتظارًا لوسيلة مواصلات لا أذكر الآن هل كانت من تلك التي يملكها الأهالي أم كانت مما توفره المحافظة، غاب الأمر عن ذاكرتي، وحقيقةً لم أحفل به، حيث لا يمثل أهمية في ذاته..

---

[1] سورة الرعد: ٤..

وكان اللقاء:

التقينا في هدأة النهار، ونحن في موقف المواصلات، وقد يطول الانتظار حتى تأتي وسيلة نقلٍ تقلنا إلى حيث نريد، فتبادلنا أطراف الحديث، ولعلها كانت المرة الأولى التي نتحدث عن حياتنا بعيدًا عن عالم الدراسة، فسألتك: هل تسكن هنا في المنصورة أم أنك تسافر إلى قرية من القُرى؟

فابتسمت أنت ابتسامة كأنها لا تزال منقوشة في مخيلتي وأنت تقول:

- يعني مش عارف؟

فرددتُ عليك مُستفسرًا: عارف إيه؟

فأجبتني وما تزال الابتسامة لا تغادر محياك:

- أنت ما تعرفش إني فلسطيني؟!

فاندفعت أجيبك وقد تملكتني الدهشة والانفعال:

- لو أعرف.. ها أسال ليه؟

فتداركت الأمر سريعًا، وقد لمستَ صدق دهشتي.. وقلت وقد انفرجت أسارير وجهك بابتسامةٍ أقرب إلى الضحك:

- لم أقصد ولكن الكثيرين يسألون لمجرد تبادل الحديث مع أنهم يعرفون..

كنتَ عَلمًا في الدفعة كلها.. فقد كنت الأول بلا منازع، وليس هذا فقط بل كنت من القِلةِ التي تتميز بطول القامة، فساعد هذا على أن لا تخطئك عينٌ، ولا يجهلك أحد، وهكذا دومًا كل نابغ متفوق يجتذب

اهتمام الكل بغير استثناء، ولكني كنتُ مازلت في مرحلةٍ من التيه التي أصابتني فلم أنتبه لكثيرٍ من الأشياءِ حولي..

وسُرعان ما تبدَدَ انفعالي وقد أدركت أنك لم تقصد أن تضمني إلى هؤلاء الذين يعتبرون الحديث مجرد تمضية للوقت، ولا يهتمون أن يكون له أي هدف آخر..

وكأن هذه البداية بما فيها من انفعالٍ كانت سببًا في خصوصية علاقتنا منذ هذه اللحظة فقد اكتسب الحوار بيننا أهمية حقيقية، فبدأنا في التعرف كل منا على الآخر، ولم ننصرف إلا وقد عرف كل منا أين يسكن الآخر وتواعدنا بالزيارة..

وسبحان الله لولا تأخرنا في هذا اليوم على غير المعتاد لكنت قد سلكت طريقي إلى البيت ماشيًا كما كانت عادتي، حيث أقطع الطريق في ساعة من الزمن أو أقلَّ قليلًا، وبخاصةٍ أن لي صديق آخر يسكن بالقرب مني فكنا نمشي سويًا، ذهابًا وإيابًا، في غالب أحوالنا، فلا نشعر بسآمة الطريق..

كذلك لا أذكر الآن لمَّ لمْ يكن صديق الطريق معي في هذا اليوم، فتتسمت صحبتك أيها الحبيب..

فهل حقًا تسير أمور الحياة في كلِ شيء حولنا وكأنها عفوية، أو كما يقول العامة: صدفة؟

بمعنى أن أي حدثٍ من الأحداث كان من الممكن أن لا يحدث، وبالتالي وكما يقولون أيضًا إنه الحظ، إذا حدث للإنسان الشيء على الوجه الذي يحبه..

فهل معنى هذا أن لقاءنا هذا كان من الممكن أن لا يحدث، وبالتالي علينا أن نشكر الحظ ونسعد به؟!

كم هو غريب أن يستقر في الأذهان مثل هذا المعنى المضل، ويصبح وسيلتنا للحكم على الأمور، دون أن نتوقف ونحاول فهم الأمور بدِقةٍ لنرى أيمكن فعلا أن تجري الأحداث على هذا الوجه؟

لو تدبرنا الأمر فلابد أن ننظر في أمرِ الصدفةِ على وجه الشمول لنرى هل يوجد ما يحول دون الصدفة أم لا؟..

وسوف ندرك يقينًا أنه حتى تجري الأمور بالصدفة يجب أن لا يكون هناك من يتحكم في سير الأشياء، وعندما ينعدم هذا المتحكم فإنه من الجائز أن تكون الصدفة أو غيرها، هي التي تتحرك بها الأحداث..

وأما إذا وجد القادر المتحكم، فلابد أن تكون له إرادة يدل عليها تحكمه في جريان الأمور..

فهيا بنا نرى على أي وجهٍ كان لقاؤنا..

إن أول طريق يجب علينا أن نسلكه للوصول إلى الحقيقة هو النظر في ملكوت السماوات والأرض، حيث أثبت العلم أن الجزء المعلوم منها يمثل قدرًا ضئيلًا تمامًا بالنسبةِ إلى الكونِ الذي لا يحيط به أحد، وأن أي خلل في نظامها نتيجته المحتمة دمار الكون كله..

ونحن إذ نتوقف أمام هذه الحقيقة فإننا لو أردنا أن نجعل الصدفة عاملًا افتراضيًا مهيمنًا على نظام الكون فلابد أن نثبت لها الإرادة والحكمة، وإلا انهار الكون على من فيه، ثم إذا كانت الصدفة تملك الإرادة والحكمة فهي يقينًا ليست صدفة..

وقد يُقال: إن تسيير ملكوت السماوات والأرض لا يخضع للصدفة، بل الأشياء اليسيرة التي تجري في الحياة فقط هي التي توصف بذلك..

وأنت ترى أيها الحبيب أن هذا القول في قمةِ العبث، لأن القادر على ضبط ملكوتِ السماواتِ والأرض هل يسمح لغيره أن يُسيرَ هذه الأشياءَ اليسيرة؟ إن هذا لا يقول به عاقل، لأن القوي القادر المريد المتحكم لا يقبل أن يخرج شيءٌ عن طوعهِ وإرادته، وهكذا لا نجد بُدًا من التسليم بوجود الخالق الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي أخبر عن نفسه سبحانه وتعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ»[1]، وليس أنه لا يخفى عليه فقط بل قدرته وسعت كل شيء: «يَابُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ»[2]..

وتعالى بنا من خلال هذه الحقيقة نقيِّم كيف تم لقاؤنا؟

هل تم بإرادةٍ وحكمةٍ من اللهِ تعالى؟ أم أنه ـ كما يزعمون ـ مما ترك للبشر يسيرونه كما يشاءون؟

---

[1] سورة آل عمران: ٥..

[2] سورة لقمان: ١٦..

ما أسهل أن يُقال إن الذي يجمعنا كُلَ يومٍ هو الذي جمعنا في هذا اليوم، ويصفون هذا بأنه الدفع الذاتي للأشياء، وكأنها نوعٌ من القوى المغناطيسية، التي تتحرك بذاتها، دون أن يحركها أحد..

أو أننا أردنا ذلك فحدث، وهكذا يكون الإنسان مُريدًا إرادةً لا يمنعها شيء، أو يُقال غير ذلك..

ولكن أليس هذا كله يمكن أن ننفيه بما نفينا به عمل الصدفة؟

وكذلك أليس قوله تبارك وتعالى دليلًا على أن كل شيء مهما كان قدره لا يقع إلا بإرادته سبحانه: «وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ»[1]..

فكيف يغيب عنا ـ أيها الحبيب ـ أن لقاءنا ما تمَ إلا بقدرِ اللهِ تعالى ومشيئته، وأما حركتنا نحن صوب هذا اللقاء فهي من قبيل الشيء الذي إذا أراده الله تعالى هيأ له الأسباب.. والذي يؤكده حديث رسول الله «ﷺ»: "وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ"[2]..

وهكذا..

التقينا على قدرٍ أيها الحبيب

---

[1] سورة يونس: ٦١..

[2] سنن الترمذي..

وإذا ما أدركنا هذه الحقيقة، وأصبحت حاضرةً في حياتنا فإننا قطعًا سنُغيرَ من طريقةِ تعاملنا مع الأحداثِ كلها، لأننا سنكون على يقينٍ أننا نصنع قدر الله في أنفسنا، فليست حياتنا مرهونة بمشيئتنا، ولكنها تصاريف القدر، ويالها من حقيقة..

ما بعد اللقاء:

ما زلت أذكر ـ أخي «طلال» ـ أنك كنت فنانًا لديك القَدرةَ على نقلِ ما يدور في الذهن ليُصبحَ صورةً على الورق تكادُ أن تنبض بالحياة، وهكذا التقينا على شيءٍ مشترك فقد كنتُ أحب أن أكتب الشعر وكانت ثمرة صداقتنا في مراحلها الأولى هذه القصيدة التي كتبتُها عن فلسطين، والتي استهللتُها بقولي:

شكت الديار وأنَّت بواكيها
وصاحت ورجفة الطغيان تسري
والمروج الخضر أمست جوانبُها
كاسفةً تلوح بين رماد وقفرِ
والريح تزأر والأمواج غاضبة
والليل واجم والنهار في حذر

وكانت سُداسية كل مقطع منها مكون من ستة أبيات وقافية، والتي منها:

فلسطينُ هُبي.. قومي.. تكلمي
ونحو السماءِ.. فلترفعي الترتيلا
غدر الزمان وليس غدرًا
تنفثُ الأفعى فتكًا وتنكيلا

تفلتت مني القصيدة وانمحى معظمها كباقي ما كتبته، حيث كنت من وقتٍ لآخر أجمع كل شيء كتبته ثم أقوم بحرقه، اعتراضًا على ضعف الأسلوب وعدم رضائي عما كتبت، وهكذا كانت نهاية كل كتاباتي..

ومع هذا لا أنسى أبدًا أنك قمت برسم كثيرٍ من الصور التي تحملها القصيدة، ونشرنا القصيدة ضمن مجموعة من المقالات في مجلة حائط أبدعت أنت كثيرًا في إخراجها فنيًا، حتى أنها كانت تجذب كل الأنظار التي تقع عليها فتتوقف أمامها مليّا..

ومهما كان قدر الذي فقدته الذاكرة إلا أنها لم تنس أبدًا كم كنت هذا الصديق الناصح الأمين، حيث أدركتني ومازالت حالة التيه التي استغرقتني تتشبث بي، فلم تقبل ذلك بل سارعت بكل صدق ولهفة لتخرجني من هذا الوهدة التي تلف بي، ولترفعني من هذه الهاوية التي كنت مستسلمًا لها، وكأنكَ آليتَ على نفسِكَ ألا يهدأ لك بال إلا إذا حررتني من حالة اللاوعي التي تكبلني، وكأني مازلت أسمع صوتك يوقظني من الغفلة وأنت تقول: ذاكر يا سيف، وبخاصة أنك علمت أنني لم ألحق بالكلية التي كنت أتمنى الالتحاق بها، بسبب حالة مرضية

أصابتني قبل امتحان الثانوية، وأدت إلى هذا التأخر، ولهذا لم أكن مُقبلًا على الدراسةِ التي أُجبِرتُ عليها، ولهذا السبب نبهتني أنت كثيرًا إلى ضرورة حسم موقفي إما العودة إلى الثانوية مرَّة أخرى أو الرضى بدراستي.. وبالتالي الاجتهاد والمذاكرة، ولهذا كنت تذكرني بذلك دومًا بقولك: ذاكر يا سيف..

عندما أقول أننا نصنع قدر اللّه فينا، لم أكن أقصد إلا هذا المعنى، والذي تصوره هذه العبارة: ذاكر يا سيف.. فأنت قادر على التفوق، أو ما يدور حول معناها..

فقد كنت أخي «طلال» متفوقًا.. بل كَنتَ نابغًا بحق، حتى أن أحدًا لم يُفكر أبدًا أن يُساويكَ، ولكن فقط يقترب منك، وكنتَ دائمًا واثقًا لا تُخيفكَ المنافسة، ولهذا لم تكن أبدًا من هؤلاءِ الذي يبخلون بأي عونٍ يمدونه لزملائهم خوفا أن يلحقوا بهم، بل كنت مُتحمسًا سعيدًا بأي عونٍ أو مساعدةٍ تقدمها لأي أحد..

كنا في أواخر عامنا الأول عندما التقينا، وكنت قد فقدت أي فرصة هذا العام للانطلاق نحو الأمام، ولكنها كانت البداية، والتي كنت أفتقر إليها على الرغم من شدة حاجتي إليها، وهي أن يوقظني أحد من غفلتي، فكانت: ذاكر يا سيف، بهذا الصوت الحاني الذي يصافح أذني في رِفقٍ وأناةٍ وإصرارٍ وحب، لم تتركني إلا وقد نجحت أن تجعلني أنهي دراستي وقد حصلت على تقدير ممتاز، ويالها من مفارقةٍ كبيرة، ففي السنة الأولى كنتُ على شفا التردي ولكن حصلت على تقدير

مقبول بأعجوبة، وها أنا ذا ضمن الممتازين وهم قِلة قليلة، لا يكاد يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة، وكما كُنتَ دومًا فأنت على رأسهم جميعًا، دون منافس، بارك الله فيك..

قدرُ اللهِ فينا:

كثيرٌ من الناس يلتبس عليه معنى الأخذ بالأسباب، وكيف يكون بعد ذلك من القدر، فهل يوجد تعارض بينهما؟

ويمكن أن استرشد بموقف أخي «طلال» مني وكيف أنه يحمل الجواب عن هذا الإشكال، ففي ظاهر الأمر أن قوله: ذاكر، هو من قبيل التنبيه على ضرورة الأخذ بالأسباب، والذي أمرنا الله تعالى به حيث يقول: «هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا»[1] وكما يقول أهل العلم أن هذا أمر بعمارة الأرض، كما يشير إليه لفظ: "وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا"..

فمع أن الله عزَّ وجلَّ قدر لنا الحياة على الأرض وسوف تستمر الحياة إلى قدرٍ معلوم، إلا أن هذه الحياة لن تستمر بنفسها، بل لابد من الأخذ بالأسباب اللازمة لذلك..

وكل سبب له ثمرة أو له نتيجة، ووجه الخطأ في الفهم أن نرجع هذه النتيجة إلى السبب دون النظر إلى القدر، والذي يجريه مُسبب الأسباب..

فكما يمكن أن ننظر إلى تصرفك أخي «طلال» على أنه كان سببًا في حصولي على تقدير مرتفع، فكذلك ننظر إلى باقي الأسباب، وننسى أن

[1] سورة هود: ٦١..

الذي جمعنا سويًا هو الذي هيأ الأمر ليسير على هذا النحو، وهو مسبب الأسباب سبحانه، وكما يشير إليه قوله تعالى:

«هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ»[1]

فإن السبب لم يكن لتكون له ثمرة لولا أن الله ذَلَلَ الأرضَ لتُنتج هذه الثمرة، ولولا هذا ماكان المشي في مناكبها له أية قيمة..

ولولا أن الله تعالى أودع في قلبكِ أخي «طلال» هذا الدافع لتخرجني من حالةِ التيه التي كنت فيها، لما نفع معي نصح، ولما وجد مني أذنًا تسمع..

ولكن قدر الله نافذ لا محالة، ولهذا سارت الأسباب على وِفقِ مراده عزَّ وجلَّ، فكان الظاهر أننا نصنع القدر، بينما نحن فقط قالب يحمل القدر، فلم يكن النتيجة لتختلف عما وقعت أبدًا لأنها هي القدر، ويؤكد هذا المعنى قوله سبحانه:

«وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ»[2]..

فكل ما يجري في الحياة واقع بقدر الله تعالى، ولو تغيرت الأسباب فإن تغيرها معناه أنها مسيّرة لتحمل القدر، والذي لا يعلمه إلا الخالق، ولهذا تتغير وتختلف حتى تستقر في النهاية على الوجه الذي ينتج القدر الذي قدره الله تعالى..

---

[1] سورة الملك: ١٥..

[2] سورة الحجر: ٢١..

وفي إطار هذه الصورة نستطيع أن نفهم أن الأخذ بالأسباب والدوافع التي غرسها الله فينا ما هي إلا وسائل للوصول إلى القدر اللازم المحتم، فلا تعارض بينهما بحال من الأحوال..

وهكذا أيها الحبيب صنعنا أقدارنا، بإرادةٍ منا ولكنها ليست إرادة خالصة، بل إرادة يسخرها الخالق لمشيئته جلَّ في علاه، ولعل مما يشير إلى هذا المعنى قوله تعالى: «**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى**»[1] فمع أن الرمي كان بسبب بُشري، إلا أن النتيجة المرجوة منه هي فعل الله تعالى، ولولا هذا لذهب الرمي هباء، ولما كان له قيمة..

وفي حديث رسول الله «ﷺ» تصوير هذا المعنى حيث يقول: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ، إِلَّا وَقَدْ كَتَبَ اللَّهُ مَكَانَهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا وَقَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً» قَالَ فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا نَمْكُثُ عَلَى كِتَابِنَا، وَنَدَعُ الْعَمَلَ؟ فَقَالَ: «مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ، فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ» فَقَالَ: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ، أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ»، ثُمَّ قَرَأَ: «فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى»[2]، وفي رواية: «لَا، اعْمَلُوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»[3]..

---

[1] سورة الأنفال: ١٧..

[2] سورة الليل: ٦..

[3] صحيح مسلم..

وليس هذا من قبيل الجبر والإلزام بل هو أن الله عليم خبير، فكانت هدايته على وفق علمه بقلب كل إنسانٍ وحقيقته، والله أعلى وأعلم..

وهكذا كانت أقدارنا على نحو ما سارت به خطواتنا، فكان لابد من أن نتزاور حتى نحقق مراد الله فينا، وتصبح واحدًا من أهلي وأحبتي وكل أسرتي..

مع الأسرة:

كنت أعيش مع أهلي في المنصورة وإن كُنا ننتمي إلى إحدى القرى المجاورة، إلا أننا قد استوطنا أطراف مدينة المنصورة كما كان الحال في هذا الوقت..

وبحسب طبيعتنا الريفية فقد كان أبناء الأقارب كثيرًا ما يقيمون عندنا إذا ما ألجأتهم الدراسة إلى البقاءِ في المنصورة إلى وقتٍ متأخر، أو إذا كانت المواصلات ستكون شاقة، كما كان الحال في هذه الفترة..

والذي أقصده أن بيتنا كان دومًا قبلًة لكثيرٍ من الأقارب الذين يأتون إلينا ويُقيمون فترًة من الوقتِ تطول أو تقصر، ثم يعود كلٌ إلى بيته وأهله، وقد كان دأب أبي يرحمه الله أن يكون البيت قِبلةً لكُلِ من لجأ إليه في ترحابٍ ومودة..

ولكن أيها الحبيب ها أنت ترى أن الأسباب تسير دومًا كما يسخرها القدر، فقد تبدوا واحدة ولكنها في الحقيقة ليست كذلك، والدليل هو النتيجة، أو هو القدر..

لقد أودع الله فيك أيها الحبيب أُنسًا ولُطفًا ومودة وأُلفَة ورِقة، قلَّ أن تتكامل لدى أحدٍ إلا قليلًا، وكنت أنت أيها الحبيب من هذه القِلة التي لا يمل من وجودها ولا تغيب إلا والقلوب ناظرة إليها في شوقٍ ولهفة..

كل من جاء ومكث عندنا فترة، كان بالنسبةِ لنا دومًا قريبًا نحبه ويحبنا، ولكن عندما أتيت أنت أيها الحبيب كنت بحقٍ واحدًا منا فكانت أمي هي أمك التي لم تلدك.. وكذلك كان أبي بالنسبةِ إليك.. فقد غرس الله في قلوبنا جميعًا محبتك، وكأن خلايا جسدك من خلايا أجسادنا، ونبضات قلبك هي نبضات قلوبنا، فلم تكن مثل أحد ممن جاء إلينا، بل كنت الجزء من الكل، لا ينفصل ولا يفترق، فلم ينسك أحد منا بعد ذلك قط..

إن هذه المشاعر مع أنها مشاعرنا إلا أننا لم نصنعها نحن، ولو كانت طوع مشيئتنا لكنا امتلكنا مثلها تجاه كل من أتى إلينا، ولكنها غرس الرحمن، كما في الحديث: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ(ﷺ): «اللهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ»[1]..

وهكذا هي المقادير فنحن الذين نقوم بالسبب ولكن الله تعالى يُجرى قدره كيف يشاء، وقد شاء أن نكون أسرةً واحدة فصرفَ قلوبنا جميعًا

[1] صحيح مسلم..

إلى هذه المشاعر، حتى نصل جميعًا إلى مراده جلَّ في عُلاه «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شيئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»[1]..

وتحمل هذه المرحلة ذكرى لا تنسى حيث كانت حرب أكتوبر، والتي عشناها سويًا ونحن في المنصورة، حيث كانت صفارات الإنذار وقطع الأنوار، وما إلى ذلك..

ولا أنسى ـ على الرغم من كثرة ما نسيت ـ أبي وهو يقول لي: "روح لـ «طلال» خليه ييجي مايقعدش لوحده"، فكُنا نسير وقد انطفأت الأنوار في كلِ مكان، نترقب انتهاء الغارة كما كُنا نطلق عليها، حتى تعود الأنوار مرة أخرى، ومع هذا لا نشعر بقلقٍ ولا اضطراب، وكأن وجودنا معا قد رفع عنا كل ذلك..

كنا نجلس سويًا كل أفراد الأسرة وأنت واحدٌ منا، حتى إذا ما رغبت في العودة سرنا سويًا حتى منتصف الطريق ثم تصافحنا وتوجه كلٌ منا إلى منزله..

وهكذا استمر الحال حتى أَذِنَ اللّهُ تعالى بأن تعودَ إلى غزة بعد أن انتهت سنوات الدراسة..

بعد الدراسة:

كان العام قد انتصف تقريبًا عندما بدأت مرحلة ما بعد الدراسة بما تحمله من حتمية الافتراق وتباعد المسافات، والتي كانت تعنى في هذا الوقت انقطاع الصِلة إلى درجة كبيرة، فلم نكن نعلم أي شيء عن

[1] سورة يس: ٨٢..

وسائل التواصل الاجتماعي التي تحملها كل يد الآن، بل إن التليفون الأرضي الذي كان موجودًا في هذا الوقت لم نكن قد حصلنا عليه بعد، إضافة إلى أنه حتى لو كان موجودا لم يكن ليفيد شيئًا حيث كان قطاع غزة مفصولا عنا بالكلية، لا وسيلة للاتصال إلا عن طريق الرسائل عن طريق المملكة المتحدة "انجلترا"، ويمكن أن تصل الرسالة بعد ما يقرب من شهرين..

ويحضرني الآن قول والدتك ــ يرحمها الله تعالى ــ عندما زارتنا في المنصورة وهي تقول: « «طلال» لما كان تيجي منك الرسالة يدخل إلى الحجرة ويجلس بمفرده ليقرأ الرسالة»، وكنت أشعر وهي تقول لي هذا بسعادة غامرة، فلم تكن رسائلي إليك تحمل كلمات، بل نبضات قلب، وخلجات نفس، رسائلي حوار دائم معك لا ينقطع، ولهذا كانت عادة ما تتكون من ورقات عدة حتى تفي ببعض ما تحمله نفسي من شعور بالشوق إلى لقائك والأنس بالجلوس إليك..

نعم أيها الحبيب لقد حرصت على أن يزورنا كل أهلك ويتعرفوا علينا، ولسان حالك يقول: أنتم جميعًا أهلي، هنا وهناك..

وهكذا كان الحال لمدة قد تكون في حدود العام أو أكثر أو أقل قليلًا، ثم أذن الله تعالى أن يتغير الحال بعد أن سافرتَ أيها الحبيب للعمل في الإمارات، وكنت أنا ساعتها مازلت في مرحلة أداء الخدمة العسكرية..

الأخ الأكبر محمد:

عندما قطعت شوطا مهما في دراستي الجامعية الثانية بكلية الشريعة بجامعة الأزهر بالقاهرة، مر على للمرة الأولى حديث الرسول «ﷺ» «إِنَّمَا النَّاسُ كَالإِبِلِ المِائَةِ، لاَ تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً»[1]..

فهذا الحديث من جوامع كلمه «ﷺ» والذي يمكن أن يحمل معنى أن أصحاب الهمم والأخلاق السامية في الحياة قلة، وهذه القِلة هم أحسن الناس في هذه الحياة..

وها هو الحديث يحضرني بقوة وأنا أتحدث عن أخيك الأكبر محمد، وأحسب أنه من أحاسن الناس أخلاقًا، وهم قِلة في الحياة، فلم يكن يتكلف حلو الحديث وطيب الصحبة، بل كانت سجية فيه، وصفة معتادة، كأنما تمثلت فيه صفات الإيمان الحق، في أخلاقه وتصرفاته، قبل أن تكون صورةً ومظهر، كما يحلو لكثيرٍ من الناس، الذين يغلب عليهم الشكل، ويغيب عنهم المضمون الحقيقي لمعنى الإيمان..

وما أسهل أن تظهر الصور في أتم ما يحب صاحبها، ولكن كم هو صعب وشاق أن تكون الصورة تعبيرا عما يدور في القلب والوجدان، وأن تكون ثمرة الصورة الارتقاء في تصرفات الحياة على الوجه الذي يحبه الله ويرضاه..

ولهذا كان الأخ الأكبر محمد من أهم المعالم البارزة في مسيرة صداقتنا، ومع أنه يكبرني بعامين أو ثلاثة تقريبًا، ولكنه مع هذا كان

---

[1] صحيح البخاري..

يمثل بالنسبةِ لي الأخ الأكبر الذي يمتلك من الحكمة والدراية مالم أكن أمتلكه..

وقد كان ـ حفظه الله وجزاه عني خيرًا ـ من هؤلاء الذين أبعدهم الاحتلال مع غيره من الشباب من قطاع غزة، بعد أن تم احتلال القطاع، وهكذا استقر في مدينة الاسكندرية، حتى التحق بالعمل ـ وقتها ـ في هيئة السلع التموينية..

ونظرًا لأنه أصبح مطالبًا بالاعتماد على نفسه ـ في هذه الوحدة ـ فقد اكتسب من الخبرة والدراية العملية ما يؤهله لمصاف الأكبر سنًا، ولهذا كانت زياراتي له زيارة من يتعهدني بالرعاية والود، والتي كانت تتم بناء على طلب منك ـ غالبًا ـ كلما تأخر لسبب أو لآخر في الاتصال بك، فكنت أذهب إليه لأطمئنك على أحواله، وكانت الزيارة عادة تطول لعدة أيام، فلم يكن يشغلني شاغل بعد..

وكان أخوك أكرمه الله وبارك له في عمره، كأنه قلب ينبض بالمشاعر الفياضة، والتي كان يفيض بها على كلما ذهبت إليه، حتى وكأنه قد تفرغ لاستقبالي والترحيب بي، وكنت بعد مازلت في رعونة الشباب لا أفطن إلى شواغله، وما يحمله على كاهله من مسئوليات، وأنسى كل ذلك في ظل حرصه على راحتي وسعادتي، ومع هذا لم يظهر لي يومًا أي ضيق أو تبرم بوجودي، ولم أكن أفطن إلى ما يجب علي، وهكذا هي القلوب الكبيرة القادرة على الاحتواء والعطاء..

ولعلنا الآن في هذه السن المتقدمة نستحضر كيف نتعجب من تصرفات الشباب، التي نراها غير مناسبة لما نراه نحن، وننسى أننا مررنا بنفس

هـذه المرحلـة والـتي نعجـب منهـا الآن ونسـتنكر كيـف تصـرفنا هـذا التصرف الذي لا نراه مناسبا الآن..

وسبحان الله كل البشر يكتسبون الدراية والوعي من خلال التجارب التي تمر بهم، فيتمنون ـ بعد أن تتكشف لهم الأمور ـ لو أنهم لم يفعلوا هذا الشيء الذي فعلوه، أو يتمنون أن لو فعلوا الذي لم يفعلوه، وهكذا كل مخلوق لا يصل له عمل إلى الكمال قط، لأنه يغيب عنه دومًا مالا يدركه إلا متأخرا، ومهما بلغ من العلم فإن الحال لا يتغير، مصداقا لقوله تعالى: «وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قليلًا»[1]، فسبحان الذي أحاط بكل شيء علما، الذي يعلم ما كان وما سوف يكون، ويعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون..

ولست أذكر الآن أين التقيت بأخيك محمد للمرة الأولى، هل أتى لزيارتك بالمنصورة أثناء الدراسة، أم أن لقائي به كان بالأسكندرية..

ولم تستوقفني بداية لقائي به بقدر ما استقر في نفسي ومشاعري من بشاشته ومودته التي كان يلقاني بها، فقد كان من هؤلاء الذين يسعد الصحب بوجودهم، وتبتهج الأشياء من حوله إذا ما ألقى طرفة، أو شارك ببسمة..

اقتربنا وابتعدنا بحسب ما أجرته علينا أقدارنا ولكن أبدًا لم يتزحزح مكانه في قلبي منذ تعارفنا للمرة الأولى وحتى الآن، فجزاه الله خير الجزاء..

---

[1] سورة الإسراء: ٨٥..

ولست أنسى ـ مهما نسيت ـ حرصه الشديد على أن توفر لي دخلا يضمن لي يُسر الحياة، وذلك بعد أن يسر لك المولى تبارك وتعالى عملًا خاصًا بك وضممت إليه كل الأحبة، ولكن لم يكن متاحًا لي أن أنضم إليك نظرًا لظروف المكان التي لا نملكها..

لقد كنت أخي الأكبر محمد من الأمثلة التي تصفو بها الحياة وتبتهج، وإني لأرجو أن تكون من هؤلاء الذي يشملهم حديث رسول الله «ﷺ»: «إِنَّ أَحَبَّكُمْ إلى وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، الْمُوَطَّئُونَ أَكْنَافًا، الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ»[1]..

البحث عن عمل:

كان شاغلي فور انتهاء الخدمة العسكرية أن أبحث عن عمل، حيث كان التعيين في الوظائف الحكومية في هذا الوقت قد بدأ يتأخر لفترة قد تطول، فقررت أن أخوض تجربة السفر، وساعدني عمي في السفر إلى الإمارات فسافرت إلى هناك وكنت أنت مازلت في العمل هناك..

ثم ابتسم لي القدر ونجحت أنت أن تجعلني أحل محلك في العمل في الشركة التي تعمل بها قبل أن تتركها وتغادر إلى اليمن..

وسبحان الله رب العالمين مازالت فترة عملي في هذه الشركة تمر بمخيلتي وكأنها سحب من ضباب، حيث لم تستمر لأكثر من أسبوعين، ثم شاء الله تعالى أن تراجع الشركة أوضاعها المالية، وقررت الاستغناء عن بعض

[1] مكارم الأخلاق للطبراني، وقال الشيخ الألباني: حسن صحيح..

العمالة، لهذا السبب، وكنت أحدث العاملين فكنتُ أول من تم الاستغناء عنهم..

قاسية هي التجارب الفاشلة، وإن كان تأثيرها على النفوس يتفاوت تفاوتا كبيرًا بحسب أحوال كل إنسان..

ولكن الذي لا شك فيه أن التردي بعد أن تكون قد وصلت إلى أعلى يكون شديدًا وقاسيًا، وهكذا كان حالي، فقد استلمت العمل وبدأت أحلامي تخرج إلى الواقع، والمستقبل الذي أصبو إليه كأنه بين يدي..

لم نكن نحيا في ظل الأسرة حياة تنعم أو رفاهية، بل كانت أحوالنا تدعو إلى الجد والاجتهاد لتستمر الحياة دون عنت أو مشقة، ولهذا تختلف حالة التأثر بالأحداث على نحو كبير بسبب طبيعة النشأة وظروف الحياة، ولهذا كان استغناؤهم عني أقرب إلى الصدمة المروعة، وبخاصة بعد سفرك إلى اليمن، وشعوري كأني طائر انتزع عنه جناحاه، فهو يتلوى من الألم..

هل لو قدر لي وقد عايشت هذه المعاناة أن يعود بي الزمن فهل أختار خوض هذه التجربة أم لا؟ وهل كانت حياتنا تستقيم بغير التجارب الفاشلة؟ وياله من سؤال..

مكثت بعد ذلك في الإمارات فترة من الوقت قد تصل إلى ستة أشهر تقريبا، ثم علمت أن تعيين الحكومة قد بدأ، فغادرت عائدا لألحق بعملي في المنصورة..

لم تكن رواتبنا في عملنا الحكومي تسمح بتلبية طموحاتنا، ولكنها كانت تسمح لنا بالعيش الكريم، وهكذا مرت أكثر من سنة تقريبًا وأنا على ذلك إلى أن التقيت مع بعض الزملاء وكان يعمل في الجزائر فزين لي السفر، وأنه سوف يكون بجواري لو نجحت في السفر، ولأن الله تعالى إذا أراد شيئًا هيأ له الأسباب، فقد التقيت مع زميل آخر يرغب في السفر إلى الجزائر، وهو جار لي وسوف تكون صحبة طيبة لو نجحت المجازفة ونجحت في السفر، وهكذا تحقق مراد الله تعالى فينا، ووصلت إلى الجزائر..

ولكن كما أن المعادن منها الجوهر النفيس ومنها الغث الرديء، فكذلك هم الرجال لا يستوون، أما أنت أيها الحبيب فكنت القمة السامقة، وكنت من الجواهر أنفَسَها..

طرنا إلى الجزائر وما أن حلت رحالنا هناك حتى تغيرت الوجوه واختلفت، وصرت وحيدا إلا من صحبة طيبة كانت تعمل هناك، وفرت لي الإقامة ولكن لم تكن تملك من أمر العمل شيئًا..

وتتكرر الغصة في حلقي شديدة قاسية، حتى لتكاد تعتصر قلبي ونفسي، ومرارة كل شيء تتجمع في خلايا جسدي، فقد انكشف الغطاء وبان المستور، ولا يوجد أي بريق أمل، بل هي الخيبة والانكسار، وبخاصة أنك لست معي في الجزائر ولست بالقرب مني فأفزع إليك، بل هي الوحدة والوحشة والألم والاغتراب، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..

إن من رحمة الله تعالى بعباده أن جعل المستقبل غيبا لا يعلمه أحد، وكأني استحضر الآن كيف بي إن كنت أعلم ما أنا عليه الآن منذ بداية عمري؟

تُرى هل كانت تستقيم حياة أحد إن أصبح غيب حياته معلوما، هل كان سيكرر المحاولة في شيء ما، وهو يعلم أن هذه المحاولات لن تقوده إلى النتيجة التي يعلمها..

وماذا لو كان الغيب الذي أخفاه الله عنا سيئا بالنسبةِ لنا، ماذا كُنا سنفعل، مع أننا لا نملك أن نغير القدر..

دارت كل هذه الأفكار في ذهني وأنا استحضر رحلتي إلى الإمارات ثم بعدها إلى الجزائر، فقد كانت كل منهما رحلة لم تحقق المطلوب منها، بل أكثر من ذلك فقد كانت رحلة الجزائر الهدف منها توفير نفقة زواجي ولكنها بدلا من ذلك عادت على بالديون والإحباط..

والآن وأنا أتذكر هذه الرحلة أحاول النظر في أمرها ماذا لو كنت علمت نتيجتها فامتنعت عن السفر، أليس من الممكن أنني والكثيرين غيري ممن يحاولون مثلي ويخفقون، لو امتنعوا عن المحاولة لتعطلت منافع الناس وأرزاقهم..

فإن فشل المحاولة إنما هي كذلك بالنسبةِ لنا، ولكنها لم تكن كذلك بالنسبةِ لغيرنا، تمامًا كما تعود نفقات السائحين بالرزق على أهل البلد المضيف، فكذلك المحاولات الفاشلة، تعود بالنفع على غير أصحابها،

فلا يحكم عليها بالفشل من هذه الجهة، إن عقول البشر لتعجز بالكلية عن إدارة شئون حياتهم لو كان الغيب بالنسبةِ لهم معلوما..

وهكذا الغيب بالنسبةِ لنا من بعض نعم الله علينا التي لا تحصى، مع أننا لو اخترنا لفضلنا أن يُكشف الغيب عنا، وهكذا هي العقول القاصرة، فتبارك الله العليم الخبير «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا»[1]..

كانت عودتي من الجزائر بعد أن مكثت ثلاثة شهور كاملة أحاول الحصول على عمل، ولكن سبق القدر وأن الجزائر كانت واحدة من الدول التي قاطعت مصر بعد مبادرة السلام، فباءت كل محاولاتي للحصول على عمل بالفشل، ولم يكن بد من العودة بعد انتهاء فترة الزيارة المسموح بها..

كان أثر هذه العودة مريرًا إذ كنت قد خطبت زوجتي بالفعل، وقد سافرت طمعًا في إتمام الزواج، بعد أن أنفقت كل ما استطعت الحصول عليه كقروض وكذلك قيمة الشبكة الزهيد والذي أصرت زوجتي "خطيبتي في هذا الوقت" أن تبيعها مساهمة في تكاليف السفر..

لم استوعب مفهوم الرزق على الوجه الصحيح، وكيف أن الله جلَّ في علاه قد ربط بين الرزق وبين قوته وسلطانه إشارة أن الرزق غيب مقدر لا

[1] سورة الجن: ٢٦، ٢٧..

يملك البشر جميعًا ولو اجتمعوا أن يمنعوه، «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ»[1]..

لقد حاولت أن أتلمس الحكمة في تصاريف قدر الله تعالى، حيث يجتهد كثير من الناس ولكن لا يحصلون على الرزق إلا بمقدار، بينما كثيرون أخر يأتيهم رزقهم رغدا من كل مكان، حتى ولو بأقل قدر من السعي والاجتهاد، ثم سُرعان ما أفقت من التمادي في هذا الأمر، اطمئنانا إلى أن الخالق سبحانه هو العدل وليس بظلام للعبيد، ولأنها من كوامن الحكمة التي لا يحيط بها إلا الله تعالى، ولعل خفاءها نعمة من نعم الله تعالى، ورحمة بالناس من أن يتحملوا ما لا طاقة لهم به..

وهكذا رجعت إلى عملي بالمنصورة وأنا في حاجة إلى سداد الدين، بدلا من أن أدبر نفقات الزواج، وكان من المناسب أن أصرف النظر عن الزواج في هذه المرحلة، ولكن كانت تسيطر على رغبة قوية أن أتحرر من أعراف الناس وأتزوج ولو بما يسمح لنا بالحياة فقط، وهكذا كان حوارنا معا أيها الحبيب، حيث استقر عملك في اليمن ورست بك السفينة في هذا المرفأ حيث كان لك بعد ذلك شأن ومكانة، لم يصل إليها أحد غريب..

ولكن كانت الأمور مازالت في بدايتها، وقد تزوجت أنت بالفعل، ولهذا أذكر أنك سألتني: يلزمك كام ياسيف حتى تتزوج..

وكان جوابي واضحًا: عاوز أكمِّل الشقة..

---

[1] سورة الذاريات: ٥٨..

وفي هذا الوقت كان ـ على سبيل المثال ـ مبلغ الخمسمائة جنيه يكفي لتلبية كل حاجاتي بما في ذلك استكمال بناء الشقة..

وقبل شرح أي تفاصيل عن حقيقة الشقة، لابد أن أتوقف هنا وقفة لاستحضر كيف كان تصرفك أيها الحبيب، وأنت بعد مازلت شابا في بداية مرحلة الزواج والعمل، وكنت أيضًا من هؤلاء الذين يتوجب عليهم الاجتهاد والجهاد حتى تتوفر لك سبل العيش الكريم، وأفراد أسرتك، ولكن لم يشغلك كل هذا بقدر انشغالك أن تحقق لي مطلبي، والذي يراه كثير من الناس ليس ملحا في هذا التوقيت، ألا وهو الزواج..

لم أكن في حاجة إلى أن أشرح لك، فقد كنت تفهم ما يدور بخاطري قبل أن أنطق به، والأهم من كل هذا أن قلبينا قد ارتبطا بالحب في الله، فكانت تلبية مطلب أحد منا للآخر من أهم ملامح السعادة في حياتنا، وهكذا كانت استجابتك لما أريد من دوافع سعادتك التي تظهر على محياك في غير خفاء ولا غموض..

وفي هذه اللحظة التي وصلني فيها المبلغ الذي أريد تنبهت لما غاب عني فهمه، إنه مفهوم الرزق، والذي اختص الله تعالى به نفسه، إذ يقول: «اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ»[1]..

لقد ظننت أن الله حرمني عندما ذهبت رحلتي إلى الإمارات وإلى الجزائر هباء بغير ثمرة، ولم أنتبه إلى لطف الله تعالى بعباده، إنه سبحانه لطيف فيما يخص الرزق، وكأنه تعالي يشعرنا بالحنو والرحمة بهذا اللطف،

[1] سورة الشورى: ١٩..

ولو فطنا إلى ذلك فلن نجزع مهما أصابنا، وبخاصة أنه سبحانه لا يعجزه ما يريد بل هو القوي العزيز، جلَّ جلاله..

وهكذا رزقني الله بك بغير حول مني ولا قوة، بل هو سبحانه اللطيف الذي أودع محبتي في قلبك، ووعدك بالأجر على عطائك، وحببه إليك، فكان رزقه مُضاعفًا تبارك وتعالى..

فكم من أُناس يمكنهم البذل والعطاء ولكن لم يحبب إليهم، فتجدهم ينفقون هنا وهناك، ولكن لا يتنافسون في عطاء ما، ومنهم من يؤدي الحج والعمرة، على سبيل المثال، مرات ومرات، ولكن إذا دعي إلى عمل فيه منفعة لأحد غيره أحجم وتباطأ..

إن المفهوم الصحيح للأجر والثواب غائب عن معظم الناس إلا من رحم الله، وكأن معيار الثواب هو ما يتوافق مع أهوائهم، وليس ما جاء به الشرع، ولكنك أيها الحبيب تمثلت الفهم الصحيح للثواب، فكنت خير مثال لجوهر الشرع..

ففي الحديث: "مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ"[1]..

وهكذا يسر الله تعالى لي الزواج على النحو الذي أحب وأعانتني عليه زوجتي، حيث تزوجنا بأقل القليل، بعد أن تم استكمال بناء الشقة،

[1] صحيح مسلم..

"مساحتها خمسون مترا تقريبا"، ولم يكن لدينا في هذه الشقة شيء جديد إلا أربع كراسي ودولاب صغير إيديال، وباقي العفش عبارة عن سرير تم توفيره من بيت أهلي..

وكنت أحمل بين جناحي أمنية أن أستطيع تحقيق الزواج ولو بأقل من ذلك، لأنني كنت ناقما وبشدة على العادات التي ألزم بها الناس أنفسهم، فشقوا على أنفسهم وجعلوا ما يسره الله صعبا، فزلت أقدامهم ووقعوا في كثير مما حرمه الله تعالى، ولكنك أكرمك الله تعالى أعنتني لأنجو من هذا المنزلق فجزاك الله عني خيرًا كثيرًا أيها الحبيب، وعسى أن نكون من المؤمنين الذين عناهم حديث رَسُولُ اللَّهِ «ﷺ»: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى"[1]..

علامات مضيئة:

في حياة الناس أحداث لا يتهيأ لها أصحابها بل تأتي عفوية وتلقائية حتى لا يكاد يفطن إلى دلالتها أحد، مع أنها قد تحمل من عظيم الأثر ودقيق الدلالة مالا تحمله كثير من الوقائع والأحداث التي يتهيأ لها الناس ويستعدون..

ويشير إلى هذا المعنى حديث سيدنا أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ «ﷺ» بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ، فَقَالَ: «اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي» قَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمُصِيبَتِي، وَلَمْ تَعْرِفْهُ، فَقِيلَ لَهَا: إِنَّهُ النَّبِيُّ

[1] صحيح مسلم..

«ﷺ» فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ «ﷺ» فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ، فَقَالَتْ: لَمْ أَعْرِفْكَ، فَقَالَ: «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى»[1]، فالصبر وهو الخلق الحسن الذي يليق بالمؤمنين إذا كان سجية في النفس ظهر عند النوازل بغير حاجة إلى تكلف أو عناء، وهكذا يعبر عن حقيقة النفس عند التصرف التلقائي الأول، دون ما يأتي بعد ذلك..

كما يمكن أن نستشف هذا المعنى أيضًا من حديث سيدنا أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ «ﷺ» قَالَ: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»[2]..

فلو لم يكن الخلق الجميل مركوزا في النفس لما استطاع الإنسان أن يقوى على إظهاره عند الغضب، أي اللحظة التي يفقد فيها التحكم الإرادي في تصرفاته، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى صدق المشاعر، فحقيقة النفوس تظهر في حال السرعة والمبادرة العفوية دون أن يتكلف الإنسان محاولة التحكم فيها لتظهر على وفق مايريد، ومن هنا يمكن أن نفهم أن الشدة المقصودة في الحديث هي الشدة والقوة في التمسك بحدود الله تعالى على الوجه الذي يرضيه سبحانه..

ولهذا السبب ألتقط هذه المواقف الثلاثة والتي تعبر - من وجهة نظري - عن هذا المعنى الذي أقصده، ومما لا شك فيه أن الأحداث على مدى هذه

---

[1] صحيح البخاري..

[2] متفق عليه البخاري ومسلم وغيرهما..

المرحلة الطويلة من العمر كثيرة، ولكن قد يغني المثال عن كثرة العد والحصر..

فاكهة الأسرة:

كانت ليلة تحمل من المعاني والدلالات ما جعلها تسكن قلبي بكل ما صحبها من بهجة وسعادة قل أن تحمله ليلة مثلها..

كنا مازلنا في مدينة نصر، ولعل الليل قد مضى منه ما يقرب من الثلث أو أقل أو أكثر قليلًا، وكنت قد قطعت من النوم شوطا، وإذا بي بجرس الباب يدق، فهرولت مستيقظا لأرى من يدق الباب في هذه الساعة، وما أن فتحت الباب حتى انفرجت أسارير وجهي وكل خلجات نفسي سعادة وفرحا، ولا أنسى تلك البسمة التي ينطق بها وجهك كلما تبسمت حتى وكأن الدنيا بأكملها ترقص طربا عندما ترى تبسمك الهادىء ووجهك المنفرج الأسارير..

لا أذكر عن هذه الليلة إلا أنني وجدتك أمامي ومعك أهلك وأولادك إيمان وأحمد، وكذا أسماء وشيماء، حفظهم الله جميعًا، وكنت قد رزقت بابنتي إيمان، والتي أسميتها باسم ابنتك حبا فيك وفي كل أهلك وأسرتك، وابنتى هدى، وكذلك كان ابني أحمد الذي حمل اسم ابنك أيضًا لنفس هذا المعنى الذي سُطر في قلوبنا، فكان أولادنا في كلِ همسة ولمسة ينقلوننا وكأننا نحيا سويًا أيها الحبيب..

كنت في رحلة سفر من غزة إلى اليمن أو العكس، لا أذكر جيدا، وليس التحديد هدفا من هذه الذكرى، ولكن المعنى الذي تحمله الذكرى كائنة ما كانت، وكان لابد من المرور بالقاهرة، فكتب الله

لنا هذا اللقاء، على غير ترتيب مسبق، ومهما قلتُ عن مشاعري في هذه الليلة فإنها ستبقى تعبيرا عن خلجات نفسي، ونبضات قلبي أكثر منها صورة يلمسها غيري، فقد كان الحديث في هذه الليلة بالقلب، قبل أن يكون باللسان..

ولهذا فإنها ستبقى في دنيا الناس زيارة من الزيارات، مهما كان ما تحمله من دلالات بالنسبةِ لنا، ولكنها في دنيانا نحن شيء مختلف، عبر عنه ما حملته وجوهنا من سعادة وبهجة، بغير حاجة إلى تعبير لسان..

يتحسب الناس ويتعللون في مثل هذه الأحوال، وتصبح لكُلِ منهم تقديرات مختلفة، ولكنها جميعًا تجعل أي زيارة كهذه من الأمور الصعبة، نظرًا إلى الليل وإلى عدم تحديد الموعد من قبل..

ولكنها في حالتنا نحن لم تكن هكذا مُطلقا، فإنك أيها الحبيب تملك حلولا كثيرة، تسمح بها ظروفك المادية تمامًا، ولكنك آثرت أن تطيع قلبك ومشاعرك، آثرت أيها الحبيب أن تأتي مباشرة إلى بيتك وأحبتك، ولا أعتقد أن أحدا يفعل هذا إلا بمثل هذا القلب النابض بالحب، والمشاعر الفياضة التي لا تلتقطها إلا المشاعر مثلها وليس شيئًا آخر..

عهدتك دومًا أيها الحبيب لا تسبق مشاعرك عقلك، ولهذا كنت بيننا دومًا لا تفعل شيئًا ثم تندم عليه لاحقا، مهما كانت نتيجته، ولهذا كان وجودك أمامي عندما فتحت الباب تجسيدا لمشاعر النفس الصادقة وميزان العقل الواعي الحكيم..

كانت هذه الليلة بالنسبةِ لي كأنها منظار قرأت من خلاله المسطور بقلبك، وعلمت قناعات عقلك، كنت متمثلا حديث الرسول «ﷺ»: "إِذَا أَحَبَّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ، فَلْيُعْلِمْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ"، وقد أعلمتني علما يقينيا هذه الليلة، أحبك اللّه الذي أحببتني فيه..

إنها ثمرة لقائنا الأول عندما كانت الشمس مازالت تبث حنانها وحنوها على الدنيا من حولنا، لتكشف عن خفايا القلوب، فتتلاقى التي صفت لبعضها وتآخت في اللّه..

واللّه أيها الحبيب وكأني أحيا الآن وأنا أكتب هذه السطور هاتين اللحظتين معا لحظة أن التقينا ولحظة أن أنبأني قلبك عن مكانتي فيه في تلك الليلة، تلك الليلة التي كانت الكلمة فيها روحا تسري في خلايانا تستشعرها الجوارح والأحاسيس، دون حاجة إلى آذان أو لسان..

أما كونك فاكهة الأسرة، فقد عاد الزمن بي بهذا الحديث إلى ما قبل العشر من عمري، عندما كنت أذهب إلى قريتي على فترات متقاربة، حيث بيت الأسرة الكبيرة، جدى وجدتي، أو كما كُنا نطلق عليها: "ستي"، أم حسين حيث كان أبي رحمه اللّه أكبر أولادها، رحمة اللّه عليهم جميعًا، وكان البيت عندما يأتي عمي من القاهرة، بارك اللّه في عمره، كأنما يزدان بكل شيء جميل، وكأن السعادة والسرور تغرد في كلِ بقعة فيه..

كان عمي حفظه اللّه هو الوحيد في كلِ العائلة الذي ألتحق بالجامعة، وحصل على ليسانس الحقوق، وكان يعمل بالقاهرة، ويأتي لزيارة الأهل في القرية من وقت لآخر، فكانت فترة وجوده في البيت أقرب ما تكون

بالفاكهة العزيزة التي يشتاق إليها الجميع، فإذا ما وجدت أقبل عليها الجميع بلهفة، وهكذا كُنا نراه..

وها أنا أيها الحبيب أستعيد هذه الصورة، وأنت فاكهة أسرتي، وأنا أراك تجلس في حجرة الاستقبال مرحبا بكل من أتي لزيارتك والسلام عليك من الأصدقاء القدامى، أو غيرهم، ويالها من صورة كانت تملأ البيت بهجة وسعادة، بما يضفيه وجودك من مشاعر الود والأنس والمحبة، والتي كانت تشع في كلِ جنبات البيت ونواحيه، وكأني أتمثل حديث رسول الله «ﷺ»: مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، مَثَلُ الْأُتْرُجَّةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ التَّمْرَةِ، لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ، لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ "[1]..

فأنت أيها الحبيب كهذه الثمرة التي تجمع بين طيب الطعم والرائحة، وحسن اللون والمظهر، زادك الله خيرًا وبركة..

لستَ وحيدًا:

أذكر أنها كانت سفريتي الأولى إلى اليمن، والتي منّ الله على بها على يديك، بعد أن استقر بك المقام، وكانت رغبتي في السفر تلح على يومًا بعد يوم، وقد أصبحت بالنسبةِ لي رسول الأمل الذي يأخذ بيدي إلى ما أصبو إليه، فلم تكن أبدًا صديقًا كالأصدقاء، بل كنت حقيقة كما

[1] صحيح مسلم..

ينبيء عنه هذا الوصف: "رسول"، لأنه يحمل في ثناياه حتمية استحضار الهدي الرباني، والذي لم يغب عنا في صداقتنا وأخوتنا أبدًا..

وهكذا قمت بعد أن استقر بك المقام بتوفير فرصة عمل لي في نفس المكان الذي أصبحت فيه المدير الذي بيده مقاليد العمل..

ولكم كانت سعادتي لا حد لها عندما استقبلتني وآثرت أن تستضيفني في بيتك قبل أن يستقر بي المقام مع زملاء العمل في السكن الذي توفره الشركة..

وهكذا تدور في حياتنا أحداث تنطق بالمعاني التي لا تحصرها كتب والتي لا يترجمها لسان، لأنها بقدر ما فيها من سلاسة وعفوية، بقدر ما تحمله من دلالات تفوق كل ما تحمله الكلمات، ففي لمسة رقيقة مسحت عن نفسي كل مشاعر الغربة التي كانت تغزو نفسي رويدًا رويدًا كلما اقتربت الطائرة إلى نهاية الرحلة، فقد كانت هذه هي المرة الأولي التي أترك فيها زوجتي وابنتي والتي لم تكن تبلغ من العمر أكثر من عام واحد، ولكنك في لمحة وومضة خاطفة انتزعتني من هذه المشاعر والأحاسيس، وكأنك تقول لي: لستَ وحيدا، فما أسعدك من صديق وأسعدك من صاحب: «خَيْرُ الأَصْحَابِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيْرُ الجِيرَانِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ»[1]..

ودلالة هذه الاستضافة لا يقدرها حق قدرها إلا من علم قيمة حرمات البيوت، والمعنى الحقيقي لاستضافة أحد في بيتي، بيتي الذي يضم أهلي

[1] سنن الترمذي، وقال الشيخ الألباني: صحيح..

وأولادي، إن هذه الاستضافة لا تكون إلا للخواص، الذين ينزلون من نفسي منزلة الأخ الشقيق، الذي ينبض قلبه بنبض قلبي، وينبض قلبي بنبض قلبه، يخاف على ويغار لما أغار له، وها أنت ذا أيها الحبيب تنزلني من نفسك هذه المنزلة العالية، وكأني بك تضع نصب عينيك حديث رسول الله «ﷺ»: «لا تُصَاحِبْ إلا مُؤْمِناً، وَلا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إلا تَقِيٌّ»[1]..

إن تعلق القلب بالابن والأخ والرحم القريب، لا مزية للإنسان فيه، لأن هذا تحركه وتنميه ـ غالبًا ـ صفات خِلقية لا دخل للإنسان فيها، بينما عندما تصبح مشاعر الأخوة، أو مشاعر الرحم القريب هي التي تربط بين الصديقين فإنها لا تنشأ إلا عن إرادة وصدق من الطرفين، لأنها صنيعة أيديهم وليست من الأمور التي يتوارثها الأهل والأقرباء، ولهذا كانت لها هذه المكانة العالية العظيمة عند الله تعالى، ففي الحديث أن رَسُولُ اللَّهِ «ﷺ» قال: إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي، الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي»[2]..

فلعل الله سبحانه وتعالى يكتبنا من المتحابين بجلاله، ومن هؤلاء السبعة الذين "يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ" والذين منهم: "وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ"[3]، أليس هذا هو الذي يتنافس فيه الطيبون الذين علموا أن حياتهم ما هي إلا امتحان للطاعة، فحرصوا أن

---

[1] سنن أبي داود، وقال الشيخ الألباني: حسن..

[2] صحيح مسلم..

[3] صحيح مسلم..

ينجحوا فيه، ويحوزوا أعلى الدرجات، فيالها من صداقة تلك التي تحقق الغاية التي يسعى من أجلها أهل الإيمان، ليفوزوا برضوان الله تعالى، جعلنا الله جميعًا منهم أيها الحبيب، هؤلاء الذين يطمعون أن يتحقق فيهم: "ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ"[1]..

ما أقرضتك:

سارت بنا السفينة يعلو بها الموج حينا ويهبط حينًا آخر، حتى شاء الله لي أن أهبط منها، لأعود مرة أخري إلى عملي في القاهرة، وتستمر الحياة على وتيرتها المعتادة، والتي لم تكن أبدًا تسمح لمن يستسلم لها أن تهدأ جوانحه..

فلقد كانت تكاليف الحياة باهظة، وبخاصة بعد الاستقرار في مدينة نصر، مما جعل الركون إلى العمل في القاهرة سبيلا إلى العناء والشدة، ولهذا كان لابد من البحث مرًة أخرى عن السفر وبخاصة بعد أن رزقت بابني أحمد، ليصبح لدي من الابناء ثلاثة، وهو حمل يحتاج إلى مزيد من الكلفة والإنفاق..

وهكذا مرًة أخرى يدور بيننا حوار السفر، فلم أكن أملك شيئًا من هذا الأمر إلا بك، ولله الحمد والمنة لم تخذلني يومًا في شيء أردته، وكان في مقدورك أن تلبيه، ولهذا لم يطل بي الوقت حتى كنت قد قد حصلت

[1] صحيح مسلم..

على فرصة عمل في نفس الشركة التي تعمل فيها، والتي أفضل كثيرًا من سابقتها قيمةً وعملًا..

ولكنها الأقدار التي يقدرها الله تعالى، وإن كانت في ظاهرها تجري بأيدينا، فلقد تركت القاهرة وكان ابني أحمد يكاد أن يتم العامين من عمره، وغادرت وما أظن أن به بأس..

وسبحان الله تعالى، لو قدر لنا أن نطلع على الغيب لتعرقلت حياتنا، ولأنهكتنا الحيرة والاضطراب، ولكن الله العليم الخبير رحيم بعباده، فما هي إلا أسابيع قليلة حتى جاءني اتصال من زوجتي تخبرني بأن ابني أحمد في حاجة إلى عملية جراحية من العمليات الكبرى والتي تصل تكلفتها إلى مالا يقل عن عشرة آلاف جنيه، على ثلاثة مراحل أو أربعة، لم أعد أذكر، وهو مبلغ باهظ في هذا الوقت، حتى ولو كان على مراحل، مع أنني قبل سفري كنت قد اطمأننت إلى أن مشكلة ابني ستزول مع الوقت، ولله في خلقه شئون..

كان خبرا نزل على قلبي كالصاعقة، شعرت أن قدماي خائرتان، ودقات قلبي تتلاحق، وقد بدأ وجهي يشع حرارة وعينياي تكادان تذرفان دمعا، وأنا بعد مازلت في مكتب التليفونات، فلم نكن نعرف التليفون المحمول في بلادنا بعد..

كنت من هؤلاء الذين يضعفون أمام الأحداث المفاجئة، ولم أنجح ـ تقريبًا ـ أن أترجم مفهوم التوكل الصحيح من أن يكون كلاما يقال باللسان ليصبح حقيقة تلمسها الجوارح، وتستقر في القلب والوجدان، هل

هو الضعف البُشري الذي يتفاوت الناس فيه، أم أنه ضعف شخصي يعاب على وإن كنت لم أملك أن أتحرر منه، على الرغم من كثرة محاولاتي..

وقفت بعد أن تلقيت الخبر، يرتعش جسدي وتتلجلج الكلمات على شفتي، أشعر بالوحدة والوحشة والانهزام، ولا أدري سببًا لهذا، إلا أنه قد ألم بي خطب كبير، لا أدري ما أنا فاعل به، هل يتوجب على العودة مرَّة أخرى لأكون موجودا بجوار ابني وهو يجري العملية، ولو فعلت هذا فكيف أعود مرة أخرى، وأنا لم أستقر في العمل بعد، وكذلك من أين لي بهذا المبلغ، وماذا أفعل لو تركت العمل ورجعت إلى عملي في القاهرة.. كثير من المشاعر والانفعالات تخبو حدتها أو تكاد تنتهي إن كنت متواجدا مع من آنس إلى كلامه وحكمته، ولكني الآن بمفردي، وكأني قد استجمعت كامل ضعفي وقِلة حيلتي..

إنه لمن أشد الأمور ألما أن أستسلم لمشاعر الضعف والانكسار هذه، وليس من اللائق أبدًا أن أتردى في هذه الهاوية التي لا ينزلق إليها إلا ضعاف الإيمان، ولست أحب أن أكون منهم، وأين أنا من حديث رسول الله «ﷺ»: «احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ، يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَإِذَا سَأَلْتَ، فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ، فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، قَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَلَوْ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ جميعًا أَرَادُوا أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَإِنْ أَرَادُوا أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ فِي

الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خيرًا كثيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»[1]..

إني والله لو وعيت هذا الحديث حقًا ما أصابني هذا الجزع والقلق والاضطراب، ولكن وبكل أسف تتحكم فينا صفات وراثية أو بيئية إن لم نروضها صغارًا ونتمرس على تحجيمها فلن نفلح في ذلك كبارًا، إلا من رحم الله، وهكذا أنا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..

كنا في هذه الساعة في منتصف فترة الراحة بين فترتي العمل والتي اعتاد الكثيرون أن ينالوا فيها قسطا من النوم، ولكن لابد مما ليس منه بد، فلا ملجأ بعد الله تعالى إلا إلى أخي «طلال» ، وأعرف أنه غالبًا في هذه الساعة يكون نائما، ولكن لم تعد بي طاقة على الانتظار، وسوف يلتمس لي العذر لا محالة، وهكذا اتصلت به تليفونيا في بيته، وأنا مازلت في مكتب الاتصالات، لأبثه ما أنا فيه..

كيف دار الحديث وماذا قلت وماذا قال كل هذا مما يصعب على استحضاره وبخاصة في الحال التي كنت فيها، ولكن ما أذكره جيدا أنني ما كدت أضع سماعة التليفون إلا وقد كان حالي غير الحال، فقد نزلت كلماته على قلبي بردا وسلاما، فانقشعت غمامة نفسي وهدأ قلبي واستكانت مشاعري، وبدلا من أن كانت الدموع تترقرق في عيني جزعا واضطرابا، إذا بها الآن بها الأن تقطر حبا وعرفانا وامتنانا..

[1] مسند أحمد، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: صحيح..

لعلها كانت كلمة واحدة أو كلمات قليلة لا تخرج عن: لا تقلق، تمامًا كما كانت كلمته: ذاكر ياسيف، وقت الدراسة، وهكذا هي القلوب والمشاعر وهكذا هي النفس البُشرية، الكلمة واحدة ولكن يختلف أثرها باختلاف قائلها، ولم يكن الآن في الدنيا أحد لكلماته تأثير على قلبي كما كنت أنت أيها الحبيب..

وفي سهولة ويسر وبغير عناء أو تردد قال: شوف المطلوب كام للعملية الآن واعتبره معك، أو هكذا كان المعنى، وسارت الأمور على خير وجه والحمد لله تعالى، واكتفيت بالمتابعة تليفونيا بعد أن تكفلت زوجتي بأمر العملية، وما يترتب عليها، والحمد لله رب العالمين..

كل هذا وتصرفك معي أخي «طلال» لم يكن جديدا أو مستغربا، ولكن لعل ما حدث بعد ذلك هو الذي نقش هذه الواقعة في قلبي ووجداني..

فقد مرت الشهور وتيسر الحال والحمد لله تعالى وأصبح من الممكن أن أسدد جزءا من قيمة العملية بغير عنت أو مشقة، فجمعت المبلغ وانتظرت لقائي معك أخي «طلال» ثم قدمت لك المبلغ الذي توفر معي مع كل معاني الامتنان والود والتقدير، فما كان منك إلا أن قلت: ما أقرضتك شيئًا حتى ترده، وما فعلت إلا ما توجب علي، وهكذا رفضت رفضا تاما أن تسترد أي شيء مما دفعته إلي..

وهنا تلجلجت الكلمات على لساني ولا أدري كيف كانت مشاعري في تلك اللحظة، لم تكن القيمة المادية أبدًا هي السبب، بل هذا السمو والارتقاء إلى هذه المرتبة والقمة السامقة العالية، من الحب والأخوة التي

لم تسمع بها أذني إلا عندما آخى رسول الله «ﷺ» بين المهاجرين والأنصار، رضوان الله عنهم جميعا، فتسابق الأنصار في العطاء، ليس كعطاء الأخ لأخيه، بل عطاء الأب لابنه، لأنه هو العطاء الذي لا أعلم له مثيلًا..

كنت في هذه اللحظة أيها الحبيب ترسم لي هذه الصورة التي لم ترها عيني إلا بين سطور الكتب، فإذا بك تجعلني أحياها وألمسها، وأراها بقلبي ومشاعري، وحواسي كلها، ولعلي تساءلت كثيرًا قائلًا لنفسي: وماذا قدمت أنا، إنني لم أقدم شيئًا إلا صدق المشاعر وإخلاص الود والحب في الله، وكل هذا لا قيمة له ـ في دنيا الناس ـ إلا عند أصحاب القلوب الكريمة الفاضلة العظيمة..

المال مهما كثر لا يمكن أن ينقش السعادة في النفس كما تنقشها كلمة صادقة من قلب محب، وأنت أيها الحبيب قد حباك الله تعالى الحسنيين عطاء المال، وطيب الكلمة، فكنت حقًا أهلا لكُلِ مكرمة وكل ثناء جميل، كنت بحق القدوة والمثال، بارك الله فيك..

القُدوة والمثال:

يعلم الله جلَّ في علاه أنني لا أريد في هذه القطوف من الذكرى أن أمتدحك تودادا إليك، وإن كنت أحب ذلك، أو تماديا في الثناء والوصف، الذي تستحقه، فإني والله لأعلم أن هذا مما نهى عنه رسول الله «ﷺ» حيث قال: «إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَّاحِينَ، فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمِ التُّرَابَ»[1]..

[1] صحيح مسلم..

ولكن أعلم أيضًا أن هذا خاص بما إذا ترتب عليه مفسدة أو كان كذبا وبهتانا، فلست متكلفا ما أقول كما أحسب إن شاء الله تعالى أنك تدرك حقيقة ما أريد، والله حسيبك ولا أزكي على الله أحدا، وحتى لا أكون ممن عناهم حديث رسول الله «ﷺ» عندما رأى رجلا يمدح رجلا: «وَيْحَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ، قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ» مِرَارًا "إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ مَادِحًا صَاحِبَهُ لَا مَحَالَةَ، فَلْيَقُلْ: أَحْسِبُ فُلَانًا، وَاللَّهُ حَسِيبُهُ، وَلَا أُزَكِّي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا أَحْسِبُهُ، إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَاكَ، كَذَا وَكَذَا"[1]..

وإني والله لأبتغي المثوبة من الله تعالى لي ولك، ولا مقصد لي يعدل هذا، ومن أجل ذلك، وكما تقرب الثلاثة الذين في الغار إلى الله بصالح أعمالهم، رجوت الله تعالى أن أتقرب إلى الله تعالى بصالح عملك، طمعا أن يجزيك الله به خيرا، وأن يكون لنا في الحياة ذكرى عندما تنقطع الأعمال، "إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ"[2].. وليس هذا فقط أيها الحبيب بل لعلنا ننال من مثوبة الله تعالى الأجر العظيم إذا ما تحققت بعملك القدوة والمثال الذي يحتذي به الناس، كما في حديث رسول الله «ﷺ»: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ"[3]..

فيكون لك بها أجر، وأجري أنني دعوت إلى ذلك وأظهرته للناس، ومالنا لا نطمع في كرم الله تعالى ورضوانه وهو سبحانه الذي لا تفنى خزائنه..

---

[1] صحيح مسلم..

[2] سنن الترمذي، وقال الشيخ الألباني: صحيح..

[3] صحيح مسلم..

ولعل هذا هو السبب الذي من أجله نقل إلينا أهل العلم والفقه كيف كان الإمام الليث ابن سعد رحمه الله تعالى على الرغم من غناه لم تجب عليه الزكاة من كثرة إنفاقه في أوجه الخير، وقد ذكرت لنا كتب التاريخ كيف كان يعين الإمام مالك بالعطاء كلما احتاج إليه، يقول الإمام الذهبي: "كَانَ اللَّيْثُ بنُ سَعْدٍ يَصِلُ مَالِكاً بِمائَةِ دِيْنَارٍ فِي السَّنَةِ، فَكَتَبَ مَالِكٌ إِلَيْهِ: على دين، فبعث إليه بخمسمائة دِيْنَارٍ، فَسَمِعْتُ ابْنَ وَهْبٍ يَقُوْلُ: كَتَبَ مَالِكٌ إِلَى اللَّيْثِ: إِنِّيْ أُرِيْدُ أَنْ أُدخِلَ بِنْتِي عَلَى زَوْجِهَا، فَأُحِبُّ أَنْ تَبْعَثَ لِي بِشَيْءٍ مِنْ عُصْفُرٍ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِثَلاَثِيْنَ حِمْلاً عُصْفُراً، فباع منه بخمسمائة دِيْنَارٍ، وَبَقِيَ عِنْدَهُ فَضْلَةٌ، وكَانَ اللَّيْثُ يَسْتَغِلُّ عِشْرِيْنَ أَلْفَ دِيْنَارٍ في كلِ سَنَةٍ، وَقَالَ: مَا وَجَبَتْ على زَكَاةٌ قَطُّ»[1]..

وكذلك كان الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى مع كثير من الأئمة من تلاميذه ومعاصريه، يصلهم دومًا بالعطاء، وغير ذلك كثير، وما أحسب ذلك إلا استنفارا لحث الناس على التنافس في الخير والعطاء، والله أعلى وأعلم..

وها أنت أيها الحبيب تحرص دومًا على أن أكون في راحة من العيش أنا وأمي وكل أسرتي، ولم تتوانى أبدًا في الاطمئنان على هذا، سواء وأنا أعيش في مدينة نصر أو بعد انتقالي في بيتي بالتجمع الأول، والذي يمثل نصف فيلا من فيلات التجمع الأول بالقاهرة الجديدة، ومع هذا لم يصرفك انتقالي إلى هذا المستوى المرتفع أن تكون كعادتك التي لم

[1] سير أعلام النبلاء، للذهبي..

تنقطع أبدًا حريصا على أن لا أعاني أو أعجز عن مسايرة المكان الذي أعيش فيه، فهنيئًا لك أيها الحبيب وطوبى لمن كانت هذه هي نفوسهم الراقية العظيمة..

وفي هذا المقام لا أنسى أنك منذ أول شهر بدأت فيه العمل، قد ألزمت نفسك بأن تدفع عطاء شهريا لهذه السيدة التي كانت تقوم على خدمتك أنت وزميليك بالسكن وقت أن كنت في المنصورة أثناء الدراسة، فلما تمت المرحلة بتوفيق الله عزَّ وجلَّ، وغادر ثلاثتكم، لم تنس أنت هذه السيدة بل حرصت على أن تصلها بما يزيد على ما كانت تحصل عليه منكم الثلاثة، وهكذا استمر حرصك ورعايتك لها إلى أن أذن الله أن تبلغ رحلة عمرها نهايتها، فجزاك الله خير الجزاء أيها الأخ صاحب القلب الكبير الطيب، ومن عجب أنني عشت في هذه القصة معنى قدرية الرزق في أجلى معانيها، فقد كنت تتذكر مكان سكن هذه السيدة ولكن ليس على وجه التحديد، ولهذا عندما طلبت مني أن أبحث عنها لم يكن العثور عليها سهلا، ولكن لأن الله عزَّ وجلَّ قد قدر في الأزل أن يأتيها رزقها من حيث لا تدري ولا تحتسب، فقد هدانا إليها واستطعنا بعد جهد الوصول إليها..

والحقيقة أنني وقد عشت هذا الأمر واقعا ملموسا كان خليقا بي أن أحيا معنى التوكل قلبا وقالبا، فإن المقادير أو الأرزاق تبحث عن أصحابها، فلم القلق والجزع، ولكن لا، كانت هذه إحدى نقائصي، فلم أستطع أن أمنع قلقي أو اضطرابي إذا ما ألم بي ما يزعجني، ومع هذا لم أستسلم، ولم أقوى بعد على هزيمة هذا الضعف والانزعاج..

وبالمقابل وبفضل من الله تعالى وتوفيقه كنت مبرأ من هذه المذمة، بل كنت على العكس من ذلك هادئا واثقا مطمئنا، كما يليق بأصحاب التقوى والإيمان، وهكذا كنت مثالًا طيبا، ولا نزكي على الله أحدا لحسن التوكل على الله، مع أنك لم تدع يومًا أنك تحمل علما من علوم الدين، أو أنك من أصحاب الدعوة والبلاغ..

وهكذا نلمس كيف يصبح الفرق هائلا بين أن يكون الدين سجية في النفس وممارسة بالجوارح دون تكلف أو عناء، وبين أن يكون حديثا باللسان وتفننا في البيان، ولكن مع هذا تعجز الجوارح عن أن تعيشه واقعا ملموسا تحقيقا لقوله تعالى: «الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ»[1]..

ومع هذا فهي النفس البُشرية التي تتسبب في مثل هذه الهزيمة، لأنني والله أحب أن أكون في إيماني بالله وتوكلي عليه سبحانه قويا، ولكنه الضعف البُشري، والذي اشتكى منه الصحابة رضي الله عنهم، فعَنْ حَنْظَلَةَ، رضي الله عنه قَالَ: كُنا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ «ﷺ» فَوَعَظَنَا، فَذَكَّرَ النَّارَ، قَالَ: ثُمَّ جِئْتُ إِلَى الْبَيْتِ فَضَاحَكْتُ الصِّبْيَانَ وَلَاعَبْتُ الْمَرْأَةَ، قَالَ: فَخَرَجْتُ فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: وَأَنَا قَدْ فَعَلْتُ مِثْلَ مَا تَذْكُرُ، فَلَقِينَا رَسُولَ اللَّهِ «ﷺ» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَافَقَ حَنْظَلَةُ فَقَالَ: «مَهْ» فَحَدَّثْتُهُ بِالْحَدِيثِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَأَنَا قَدْ فَعَلْتُ مِثْلَ مَا فَعَلَ، فَقَالَ:

[1] سورة الرعد: ٢٨..

«يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً، وَلَوْ كَانَتْ تَكُونُ قُلُوبُكُمْ كَمَا تَكُونُ عِنْدَ الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ، حَتَّى تُسَلِّمَ عَلَيْكُمْ فِي الطُّرُقِ»[1]..

فهؤلاء الصحب الكرام لم يقدروا على أن يبقوا في نفس الحالة من الروحانية والتسامي على الوجه الذي يحبون..

ولست أريد التشبيه معاذ اللّه أن أدع ذلك، ولكن فقط أريد أن يطمئن قلبي وتهدأ نفسي أن مابي من ضعف التوكل عسى اللّه أن يعفو عني، وعسى حرصي على التشبه بك في هذا الأمر العظيم أن ييسر الصعب ويقرب البعيد، ولعل في حديث الرسول «ﷺ» ما يعيننا على تحقيق هذا المطلب العزيز فقد كَانَ «ﷺ» يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: "يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ"[2]..

وفي رواية أخرى كان «ﷺ» يقول:

"اللَّهُمَّ مصرِّف القلوب، صرِّف قلوبنا على طاعتك"[3] ..وأي طاعة تعدل حسن التوكل عليه والإنابة إليه سبحانه وتعالى..

وفي الختام:

أيها الحبيب «طلال» إن لم أتمكن من تقديم أي شيء مادي لك، فعسى أن أكون قد نجحت في أن أجعل كل من يقرأ هذه الخاطرة يدعو اللّه لك، وأن تكون ممن عناهم اللّه عزَّ وجلَّ بقوله: «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى

---

[1] صحيح مسلم..

[2] سنن الترمذي، وقال الشيخ الألباني: صحيح..

[3] صحيح مسلم..

وَزِيَـادَةٌ وَلَـا يَرْهَـقُ وُجُـوهَهُمْ قَتَـرٌ وَلَـا ذِلَّـةٌ أُولَئِـكَ أَصْـحَابُ الْجَنَّـةِ هُـمْ فِيهَـا خَالِدُونَ»[1]

حَفِظَكَ اللهُ ورعاك..

***

[1] سورة يونس: ٢٦..

٢

الساحر!!

قبل أن أحدثك حديث الليلة أيها الحبيب مصطفى دعني أبين أولا السبب في اختيار هذا العنوان ـ الساحر ـ مع ما قد يُعترض على به، حيث قد استقر في الوجدان تحريم السحر، فقد ورد في الحديث عن رسول الله «ﷺ» قوله: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ وَأَكْلُ الرِّبَا، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصِنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ»[1]..

وفي الأثر عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: "مَنْ أَتَى سَاحِرًا أَوْ كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ «ﷺ»"[2]..

ومن هنا ندرك لا محالة أن البعد عن كل ما يمكن أن يؤدي إلى الالتباس يكون مطلوبا، ولكن مع هذا فليس هذا هو السحر الذي نتكلم عنه، بل نتكلم عن سحر آخر..

السحر والاشتراك في المعاني:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّهُ قَدِمَ رَجُلَانِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَخَطَبَا، فَعَجِبَ النَّاسُ لِبَيَانِهِمَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ «ﷺ»: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا، أَوْ: إِنَّ بَعْضَ الْبَيَانِ لَسِحْرٌ»[3]، وأرجح أقوال العلماء أن هذا

---

[1] متفق عليه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه..

[2] السنن الكبرى للبيهقي..

[3] صحيح البخاري..

الحديث محمول على وجه المدح بدليل سياق الحديث والذي دلَّ على فصاحة الخطباء..

وقد وجدنا من يطلق على الفصاحة وحسن البيان لفظ السحر الحلال، ففي المصباح المنير: «وَإِذَا أُطْلِقَ ذُمَّ فَاعِلُهُ وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ مُقَيَّدًا فِيمَا يُمْدَحُ وَيُحْمَدُ نَحْوُ قَوْلِهِ - «ﷺ» - «إنَّ مِنْ الْبَيَانِ لَسِحْرًا» أَيْ إنَّ بَعْضَ الْبَيَانِ سِحْرٌ لِأَنَّ صَاحِبَهُ يُوَضِّحُ الشَّيْءَ الْمُشْكِلَ وَيَكْشِفُ عَنْ حَقِيقَتِهِ بِحُسْنِ بَيَانِهِ فَيَسْتَمِيلُ الْقُلُوبَ كَمَا تُسْتَمَالُ بِالسِّحْرِ وَقَالَ بَعْضُهُمْ لَمَّا كَانَ فِي الْبَيَانِ مِنْ أبدَاعِ التَّرْكِيبِ وَغَرَابَةِ التَّأْلِيفِ مَا يَجْذِبُ السَّامِعَ وَيُخْرِجُهُ إلَى حَدٍّ يَكَادُ يَشْغَلُهُ عَنْ غَيْرِهِ شُبِّهَ بِالسِّحْرِ الْحَقِيقِيِّ وَقِيلَ هُوَ السِّحْرُ الْحَلَالُ»[1]..

كما نقل هذا اللفظ أيضًا عن خامس الخلفاء الراشدين رضي الله عنه: «وقال عمر بن عبد العزيز لرجلٍ تكلم عنده.. فأحسن: هذا والله السحر الحلال»[2]..

ويقول الإمام ابن سيده: «والسِّحْر: البَيان فِي فِطْنَة، وَفِي الحَدِيث: «إنَّ من الْبَيَان لسِحرا»، قَالَ أَبُو حنيفَة: فَأَما قَول النّبي «ﷺ»: «من تعلَّم بَابا من النّجوم فقد تعلم بَابا من السّحر» فقد يكون على الْمَعْنى الأول أَي أَن علم النّجوم محرَّم وَهُوَ كفر كَمَا أَن علم السّحر كَذَلِك وَيكون على الْمَعْنى الثّاني أَي أَنه فطنة وَحِكْمَة وَذَلِكَ مَا أُدرك مِنْهُ بطرِيق الْحساب

---

[1] المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المؤلف: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ)..

[2] عمدة الكتاب لأبي جعفر النحاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي (المتوفى: ٣٣٨هـ)..

كالكسوف ونَحْوه، أَبُو عُبَيْد: الطّبُّ: السّحر قَالَ وَأرى أَنه كني بِهِ عَن السّحر»[1]..

ويبين الإمام الزركشي اختلاف الفقهاء في معنى الحديث مع ترجيح أنه محمول على جهة المدح، فالسحر هنا هو سحر البيان والفصاحة، فيقول: «قَوْلَهُ: «ﷺ»: «إنَّ مِنْ الْبَيَانِ لَسِحْرًا» أَنَّهُ قَصَدَ بِهِ الذَّمَّ، وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّهُ قَصَدَ بِهِ الْمَدْحَ، وَسِيَاقُ الْحَدِيثِ يَقْتَضِيهِ، وَأَطْلَقَ عَلَيْهِ اسْمَ السِّحْرِ لِأَنَّ مَبْنَى عِلْمِ الْبَيَانِ التَّخْيِيلُ»[2]..

ومع هذا فلكم حاولت أن أتورع عن هذا العنوان ولكن أبدًا لم أجد عنوانا بديلا يعبر عما أريد بيانه، فإن ما أتحدث عنه هو بحق السحر الحلال..

السِباق إلى التراويح:

ففي هذه الليلة ـ أيها الحبيب مصطفى ـ ونحن نصطف للصلاة، في آخر ليلة من ليالي صلاة القيام، وكان الشاب محمود هو الذي يؤمنا في الصلاة..

إذا بي ونحن نتهيأ للصلاة أعود بالذاكرة إلى الوراء، إلى ما يزيد عن الثلاثين سنة، عندما كُنا نتعهد أنفسنا في رمضان من كل عام لنذهب إلى الجمعية الشرعية بالمنصورة، حيث بهجة صلاة القيام ونحن نستمع خاشعين إلى هذا الصوت الشجي الذي يشدو به الشيخ أحمد، وكان ـ حينئذ ـ يشفي بترتيله القلوب العليلة، ويحيي بتلاوته النفوس السقيمة،

---

[1] المخصص، المؤلف: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، (المتوفى: ٤٥٨هـ)..

[2] البحر المحيط في أصول الفقه، للإمام الزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ)..

حتى أصبحنا نتسابق كي نحظى بفرصة القرب منه حال الاصطفاف للصلاة..

لم تكن الحياة بعد قد أنهكتنا بمعتركها، بل كُنا نشعر وكأننا ننافس الطير عندما نمشي سريعًا بعد الإفطار، فقد كُنا في ريعان الشباب، وكانت لهفتنا لا حد لها ونحن نعجل بالخطى، حتى لا تفوتنا أماكننا في الصف الأول..

كانت سعادتي لا توصف، وأنا أصطحب زوجتي كل ليلة، بعد زواجنا مباشرة، في هذه الأيام المباركة الطيبة، لننهل من هذا المعين العذب الذي لا يضاهيه شيء..

ولعل من نعم الله علينا أن تتطبع هذه المشاعر في ذاكرتنا، وترتبط بعطاء الله الوافر، الذي لا يحصى، لتجعلنا كلما طافت بنا الذكرى نستحضر كيف عجز كل متاع الدنيا عن أن يوفر مثل هذه السعادة، لمن حرم حلاوة الطاعة، ونعيم العبادة..

لم يكن قول الرسول «ﷺ»: «يَا بِلَالُ أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا»[1]، من قبيل المجاز، بل هو حقيقة لا يمكن أن يستيقنها إلا من ذاق حلاوتها واقعا ملموسا..

ولكم تعجبت مما وصفه لنا أهل الحديث عن صفة صلاة رسول الله «ﷺ» حيث كان يقوم في الليل يصلي حتى تورمت قدماه، بأبي أنت وأمي يا حبيبي يا رسول الله..

[1] سنن أبي داود، وقال الشيخ الألباني: صحيح..

ألم تكن قراءة القرآن وأنت تجلس مستريحا أعون على الغوص في معانيه، والاستزادة من آلائه، عن طول قيامك في الصلاة لابد أن له من حكمة لم نفطن إليها بعد، يا حبيبي يا رسول الله، صلوات الله وسلامه عليك..

كنا نزن الأمور بموازين العقول، ولم نكن ندرك ـ بعدُ ـ أن ميزان العبادة تختلف معاييره عن موازين البشر، لأن مالكه هو الخالق سبحانه.. وها نحن نلمس بعضا مما غاب عنا من هذه الحكم البالغة، نستشعرها بكل حواسنا، حتى وإن لم تدركها عقولنا على وجهها الأتم الأكمل، فليس الجلوس مستريحا أعون على الفهم كما كُنا نظن، لأنك لست صاحب هذا الفهم، بل هو منَّة يقذفها الله عزَّ وجلَّ في قلبك، كيف شاء وحين يريد..

ثمرة الاجتهاد في العبادة:

ويمكن أن تلحظ أن الجامع بين ذلك كله، أي الراحة بعد عناء العبادة وأثنائها، إنما هو ثمرة الامتثال بالعبودية للخالق سبحانه على الوجه الذي يحب ويرضى، وكلما اجتهدت في العبادة وزاد تعبك أو زادت المشقة عليك كلما كان هذا سببًا في الوصول إلى رضوان الله جلَّ في علاه، فعَنْ أم المؤمنين عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ «ﷺ» قَالَ لَهَا فِي عُمْرَتِهَا: «إِنَّ لَكِ مِنَ الْأَجْرِ عَلَى قَدْرِ نَصَبِكِ وَنَفَقَتِكِ»[1]، ومن أجل هذا كان أجر العبادة أرجى في النصف الثاني من الليل حيث قال تعالى:

[1] المستدرك على الصحيحين للحاكم، وقال الشيخ الألباني: صحيح..

«كَانُوا قليلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ❖ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ»[1]، فمجاهدة النفس فيما تهواه وتحتاجة رغبة في طاعة الله تعالى هو السبيل إلى مثوبته ورضاه جلَّ في علاه، ولو ترك الأمر لعقول الناس لكان غالب ظنهم أن الحصول على قسط الراحة بالنوم ليلا هو الأولى والأفضل لما يوفره من نشاط وراحة جسدية، ولكن أمر العبادة لا يستقيم مع هذا أبدًا بل لابد من المجاهدة والتعب والصبر على ذلك، وصولا إلى عطاء الله وثوابه ففي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ «ﷺ» قَالَ: "يَنْزِلُ اللَّهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَمْضِي ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلُ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْمَلِكُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ، فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُضِيءَ الْفَجْرُ"[2]..

والمعنى المستفاد أنه لابد من تحقيق مفهوم العبودية الحق «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ»[3] لتنال مثوبة الله وعونه، ولا يتحقق هذا إلا بالمجاهدة والتعب، حتى وإن ترتب على ذلك فوات كثير من المتاع أو المتع الدنيوية، فمهما بلغ قدرها فهي لا تساوي شيئًا مقارنة بمتاع الآخرة «قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا»[4]..

---

[1] سورة الذاريات: ١٧، ١٨..

[2] صحيح مسلم..

[3] سورة الذاريات: ٥٦..

[4] سورة النساء: ٧٧..

ومع هذا فإن من أجل نعم الله تعالى على عباده الصادقين أن كل تعب العبادة يصبح راحة وسعادة بفضل الله تعالى وكرمه، فإنه سبحانه لا يتخلى عنهم بل يرفعهم إلى أعلى الدرجات، ألم تقرأ قوله تبارك وتعالى:

«وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ»[1]

كيف ستقترب، إنه ليس بيدك، بل هو عطاء الله تعالى، لأنك أسلمت له قيادك ورضخت له بالعبودية على الوجه الذي أمر جلَّ في علاه، فكانت الثمرة أن يقربك منه سبحانه، هذا القرب الذي تهون معه كل مصاعب الدنيا، وتتغير الموازيين التي يتعامل الناس بها، ليحل محلها ميزان الرضا بما قسم الله تعالى، والقناعة بما أنعم به وأعطى، سبحانه..

إن حالة الرضا هذه لهي مطلب عزيز المنال على كثير من الناس مهما أحاطت به متع الدنيا، ولكنها قريبة لمن ألف الطاعة، وتمرست حواسه بالعبادة، ولهذا حثنا رسول الله «ﷺ» على مناجاة الرب جلَّ في علاه حال السجود:

«أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ»[2]

لأنه أعلى مقام العبودية حيث تضع ـ طائعًا مختارًا ـ أعظم جزء منك على الأرض إقرارًا بعبوديتك لله تعالى وحده لا شريك له..

صلاة الجماعة:

من أجل هذا كانت الصلاة هي ركن الإسلام الأعظم، لأنها من بدايتها إلى نهايتها تعبر عن كل معاني الذل والانكسار، بين يدي الخالق

---

[1] سورة العلق: ١٩..

[2] صحيح مسلم..

سبحانه، وليس هذا متمثلًا في السجود، أو الركوع فقط بل أيضًا في الوقوف ساكنًا خاضعًا منكسرًا، والذي لا يليق أن يكون إلا للخالق عزَّ وجلَّ وحده دون سواه، مهما عَظُمَ جاه المصلي أو عزَّ سلطانه في الدنيا، فهو بين يدي خالقه عبد مطيع، لا جاه ولا سلطان، وكلما تخلص من تعلقه بمكانه في الدنيا، كلما ارتقى بصلاته وازداد من الله قربا، ولأن الصلاة هي النسك الذي يناجي فيه العبد خالقه ومولاه فقد شرعها جلَّ في علاه خمس مرات في اليوم والليلة، ليكون تعلق العبد بربه دائمًا متصلًا..

ولأن الصلاة تحمل أيضًا من نِعمِ الله وآلائه ما لا يوجد في غيرها، شرع الله صلاة الجماعة ورغب فيها، لتتحقق وحدة المجتمع المسلم، ويتآلف أبناؤه، كالبناء الواحد القوي المتماسك، ولو أن الناس أقاموا صلاة الجماعة على الوجه الذي أمر به الله لتغير حالهم إلى أحسن حال:

«أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ»[1]

ومن أجل هذا جُعلَ الشيطان أكثر تمكنًا من نفس المنفرد، حتى يلهيه ويدخل عليه الشك والنسيان فلا يدري كم صلى أو ماذا قرأ، بينما يضعف تأثيره على أهل صلاة الجماعة، وإن لم ينعدم، ليظل الإنسان دائمًا في جهاد طلبا للخشوع التام ومعية الخالق سبحانه، وكلما صدق مع ربه كلما دانت له خلاياه وأعضاؤه على النحو الذي يرضي الله جلَّ في عُلاه..

[1] سورة الملك: ١٤..

ولهذا عندما تستحوذ عليك الصلاة ـ وأنت في الجماعة ـ تنبثق في خلاياك مشاعر وأحاسيس لم تكن تحضرك على الإطلاق خارج الصلاة، هذا الفيض من المشاعر الرقراقة التي تحتويك وتحتضنك وأنت تسمع قول المولى تبارك وتعالى:

«إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ»[1]

فتتمنى لو تمد ذراعيك لتحتضن كل من معك في الصلاة ليسكنوا قلبك، ألسنا إخوة، أليست مشاعر الإخوة أن يئن قلبك في كلِ موقف ترى فيه أخاك وقد أنهكه التعب؛

ألم تتمنَ وقتها لو تستطيع أن تخفف عنه ولو أن تحمل عنه كل الألم والمعاناة، ألم تكن تكفيك نظرة أخيك حتى تطير لهفًا وطمعًا أن تلبي له ما يريد، ألم تكفكف عنه مدامعه كلما ألمَّ به ما يحزنه، إنها إذا الإخوة التي أوصانا الله بها تجاه هؤلاء الصحب الذين يصلون معك، كيف كان يمكن أن تحيطهم بمشاعر الإخوة هذه لو لم يقذف الله في قلبك هذا الإدراك لمعنى الإخوة في الله، وهل كان من الممكن أن تتولد هذه المشاعر في نفسك، لو لم تقف خاشعا بين يدي الله وقد اشتملتك الصلاة بكل أسرارها..

أليس هذا هو الحب في الله الذي أوصانا به رسول الإسلام، «ﷺ» كما في الحديث القدسي:

---

[1] سورة الحجرات: ١٠..

"إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي، الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي»[1]،

أليست الصلاة هي أعظم لقاء يجمع بين الأحبة في الله، نعم إنها بوابة الفوز بهذه البشرى التي أعدها المولى تبارك وتعالى لمن تمكن منه الحب في الله تعالى..

إنه حب لا يمكن الوصول إليه كما يمكنك وأنت في صلاة القيام، فكلما تكررت ركعاتها وطال قيامها، حملتك من حال إلى حال أحسن منه، وكأنك ترتقي في ملكوت الخالق أعلى فأعلى، وهكذا، فليس عطاء الله لك في الصلاة دفعة واحدة، بل رويدًا رويدًا، حتى يغمرك منُّه وكرمه سبحانه، فلا يشغلك بعده من الدنيا شيء، عندها تشعر وكأنك تريد أن تشرك العالم أجمع فيما تجد وتحب، وكيف لا والفرحة والبهجة لا تكتمل إلا في كنف الأحبة..

إنها فيوضات الرحمة وبركات الصلاة التي تزيح عن النفس كل ما يؤلمها، فلا يبقى بينك وبين أحد إلا المودة والتعاطف، فتتمنى لو طرت إلى كل أحد آلمته في يوم من الأيام، لتنزع عن نفسه هذا الألم، وتبدله به سعادة..

إنها ليست مشاعر الحب واللهفة التي تربط بين المرء وزوجه، ولكنها مشاعر الحنو والرحمة التي تجعلك تلين وترضخ، ويرق قلبك حتى وكأنه قد أصبح قطعة من قلب أخيك..

---

[1] صحيح مسلم..

إنها صلاة الليل أيها الحبيب مصطفى التي هدهدت النفس، وأيقظت فيها كوامن الخير والبركة، إنها صلاة التراويح، والتي من أجلها كانت رحلتنا اليومية..

ولست أبالغ عندما أقول إن هذه المسافة التي كُنا نقطعها ذهابًا وإيابًا إلى المسجد والتي لم تكن قصيرة، كانت تمثل لي ولزوجتي رحلة أغنتنا عن كثير من رحلات السياحة الدنيوية..

وكم هي عجيبة هذه الصلاة، إنك كلما ازددت فيها تعبا، في الوقوف، كلما لانت مشاعرك وارتجفت خلجات قلبك وترقرت الدموع في عينيك، دون ما إرادة منك، رغبة وطمعا، رغبة في المزيد مما تجد من حلاوة ومتعة، وطمعا في مرضاة الرب سبحانه وعفوه وغفرانه، نعم إن لها لحلاوة تكاد تميز مذاقها عن كل حلوى طعمتها من قبل، لأنها لا شبيه لها في حسنها وروعتها، في كلِ ما يصنعه الناس..

ولهذا لم يكن عجيبا أنك كلما ازداد تعبك وددت المزيد والمزيد، لأنه ليس التعب الذي يرهقك ويؤذيك، بل إنه تعب جمع السعادة، تعب التنقل بين ألوان النعيم، ولهذا سُرعان ما يزول التعب وتبقى السعادة والهناءة..

زينة التلاوة:

لكل شيء زينته، ولكن زينة التلاوة شيء آخر، إنها زينة لا تدرك بالعيون بل بالقلب والجدان، ولا يدركها إلا من تعب واجتهد في الوصول إليها، فقد كُنا شبابا تساعدنا عضلات أجسادنا على طلب المزيد، هذا المزيد الذي زينه لنا بصوته الرخيم إمام الصلاة ـ الشيخ أحمد ـ وشتان

بين من يعلن عن سلعته الغالية بما يحبب الناس فيها فتهوى إليها نفوسهم، وبين من ينفرهم منها بسوء عرضها، فيبتعدون عنها..

ومن هنا أدركت المعنى العظيم لقول الرسول «ﷺ»:

"زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ"[1]

وكأن المراد منه، والله أعلم، أن لا يكون القاريء سببًا في نفور الناس من الإقبال على مأدبة الله تعالى التي لا مثيل لها ولا شبيه..

إن من يعرض السلعة بطريق حسن لا يزيد ذلك من حسنها الذاتي شيئًا، ولكنه يساعد الناس على استشعار هذا الحسن وتأمله، بينما هذا الذي يسيء عرضها إنما يصد الناس، ويكون حائلًا بينهم وبين خبايا ما تحمله السلعة من حسن وجمال..

ولعل هذا السبب أيها الحبيب مصطفى هو الذي جعل مكانك في قلبي لا يعلوه مكان، فلقد كنت واحدًا من أمهر الذين يغزون حجب النفس، في ثقة وأناة، إذا ما اصطف الناس للصلاة، يستمعون إليك..

إنها لذكرى ويالها من ذكرى، وها نحن الآن نتهيأ لصلاة التراويح أيضًا، ولكن في زمان غير الزمان السابق، ومكان غير المكان، وكذا حال غير الحال، فقد عادت بي هذه الومضة من السنين ما يزيد عن نصف عمري..

وكم تغيرت أحوالنا واختلفت، فقد ولى الشباب، وتمكنت من النفس لواعج الشيخوخة وأثقالها، ويالها من نقلة بعيدة..

---

[1] سنن أبي داود، وقال الشيخ الألباني: صحيح..

لقد كانت المشاعر أكثر صفاء ونقاء، والأعباء والمشاغل قليلة للغاية، فلم تستحوذ علينا الدنيا كما هي الآن، ولم نحمل أعباء الأسرة والأولاد، بل والأحفاد كذلك كما نحملها الآن..

ولكن ومع كل هذا مازالت اللهفة موجودة، والرغبة في اقتناص السعادة كبيرة، حتى وإن ضعفت قوانا عن المزيد، إلا أن المثابرة والعناد، تجعلنا نتشبث بهذا الشعاع من الأمل الذي يغمرنا في العام مرة..

إنها صلاة التراويح ـ أبها الحبيب مصطفى ـ حيث كنت تؤمنا في الصلاة ـ كثيرًا ـ في نفس هذا المسجد، إنه مسجد الاعتماد على الله، رحم الله من قام على بنائه، وأجزل له المثوبة والغفران..

كنتَ ذا طابع خاص مميز، عندما كنت تتلو آيات القرآن الكريم، لم تكن تنطق الألفاظ ككلمات تترنم بها الشِفاه، بل كنت ترسمها لوحاتٍ لامعًة وضاءة، تكاد تنبض بالحياة، وأنت تتناغم معها كيف تشاء، كنت تغوص في بحور المعاني لتعرض لنا بعضا من درها المكنون، وتنتقل بنا بين النفائس التي تحار في سحرها العقول..

أتذكر كيف كان الشيخ أحمد في زمنه الماضي يعزف في صلاته على أوتار القلوب، ويدغدغ المشاعر بتلاوته، وترق النفوس حتى تفيض العيون بالدمع، وتعلو الأصوات بالبكاء والأنين، وهي بين يديه، وكأنه يعرض عليها شريط الذكريات، فتدرك كم أضاعت الكثير من سنوات عمرها في غير ما يجب أن يكون، فلا تتمالك عبراتها من فرط الخوف

والأسى، فيعلو أنينها، ما بين الرجاء والخشية، وكأني ما زلت أذكره الآن وهو يردد قوله تعالى:

«فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا»[1]

مرة بعد مرة، فتشعر وكأنه يمد يده ليأخذك حيث تأخذ الكتاب بيمينك، وكأن غاية ما يرجوه أن تنقلب إلى أهلك مسرورا، كُنا نشعر به وهو يناشد القلوب ويناجيها لتكون من أصحاب اليمين، ولا حيلة له إلا أن يربطك بكلام الله تعالى، بكل ما أوتي من عطف وحنين، أو شفقة وأنين، فكانت القلوب تهفو إليه من كل حدب وصوب، وكان منارة من المنارات التي لا تغفلها العين ولا يسلاها القلب..

ولم تكن أنت كذلك أيها الحبيب مصطفى بل كنت خبيرًا في إظهار عظمة البنيان، ورسوخ جوانبه، كنت حريصا على بيان رونق الدين، وعوامل الإعجاز فيه، في سلاسة ويسر..

كنت على بصيرة أن أعظم ما في الصلاة هو التدبر والتفكر في كلام الخالق سبحانه، الذي لا تنقضي عجائبه، فكان شاغلك، وحافزك لتجتهد بكل ما وهبك الله من فصاحة وبيان أن تغزو العقول قبل القلوب، لتحرك ساكنها، وتوقظ غافلها..

ولعلي أتمثلك وأنت تقرأ هذه الآية من سورة هود:

---

[1] سورة الانشقاق: ٧ – ٩..

«وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ»[1]

مثل القائد الذي ينظم الصفوف في عزم وثبات، وكأني بك تنتشل هذه الأجساد من أن تمسها النار، وكأنك تحذرها من الانسياق خلف كل بريق خادع، ووهم كاذب، ثم تقطع الصوت في توقف حاسم عند قوله تعالى:

«وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ»

لترتجف الأجساد جميعًا من هول الخوف والرهبة أن تكون قد والت أحدا من الظالمين، أو اتخذت وليا من دون الله..

الكلمات تخرج من فمك وكأنها روح تتحرك، وكأني أنظر إلى المصلين خلفك وهم يراجعون مواقفهم في الصلاة لينتظموا كما أمروا، كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، وكأنهم يدركون للمرة الأولى أن وقوفهم في الصلاة يجب أن يكون كما الجند في الصفوف، لا يتقدم منهم أحد عن الآخر ولا يتأخر..

هذه المعاني لم تنطقها أنت بألفاظها، ولكنك تلقيت كلام الله تعالى بما يليق به، فيسر لك المولى تبارك وتعالى الرسالة التي تريد أن تبلغها، فانتظمت الصفوف، وقد كُنا نعاني ليحسن الناس اصطفافهم، دون إجابة إلا فيما ندر..

---

[1] سورة هود: ١١٣..

فعلى الرغم مما يردده الإمام فيما يخص تسوية الصف إلا أن الاستجابة من المصلين تكون غالبًا محدودة، ولكن حين يعلو صوتك بكلام الله تعالى، لا يملك معظم المصلين إلا الاستجابة لما يجب عليهم حتى ولو لم تنطق به، إنها لحظة الإفاقة التي غابت عن أكثر المصلين، الإفاقة لمعنى الصلاة وما تمثله من مقام العبودية والخضوع..

ولهذا كان أكثر من يحرص على الحضور إلى إمامتك للصلاة، من كان مهيئا للفهم والاستيعاب، لأنه سيكون في هذه الصلاة دارسًا لكتابِ الله تعالى، وليس مستمعًا فقط..

إذا رق القلب وارتجف لقراءتك، فليس لعذوبة الصوت وصفائه في المقام الأول، بل لأنه كمن يطلع على مكنون ما تحمله ألفاظ القرآن الكريم من سحرٍ وجمالٍ للمرةِ الأولى..

عندما يعلو صوتك أو ينخفض، لم يكن شاغلك العزف على أوتار القلوب، بل تنبيه الأفئدة والعقول، كنت مفسرا للقرآن دون أن تزيد شيئًا على تلاوته، وكأن معك ويصاحبك شارح لما تتلوه..

كنت أعجب من سياحتك الهادئة العميقة الواثقة، وأنت تخرج لنا في كلِ لحظة ما لم نكن ندري أنه موجود، أين كانت هذه الكنوز، وقد سلكنا هذا السبيل مرات ومرات، ولكن لم تكن أنت آنئذ من يبحر بنا أيها الحبيب..

وهـا نحـن الآن نـدرك بعضًـا مـن الحِكـم الـتي يحملـها حـديث رسـول اللّه«ﷺ»:

«لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالقُرْآنِ»[1]

إنه أنت أيها الحبيب الذي تغنيت بالقرآن كما لم يتغن به إلا قليلون، فقد تغنيت فأغنيت، وأديت فأحسنت، وما كان لنا أن نغنم ثمرة هذا التغني إلا بالصلاة، أي صلاة الجماعة..

في نفس هذا المسجد ها نحن نقوم للصلاة، في هذه الليلة التي يؤمنا فيها الشاب محمود، وها هو يرفع يديه بتكبيرة الإحرام، وانقطعت الأصوات في المسجد تمامًا، فقد انتظمت الصفوف، واستكانت بين يدي خالقها سبحانه، أداء للصلاة..

عندما يستهل الصلاة بقراءة فاتحة الكتاب لا يكاد صوته يحتويك حتى تعلو أصوات المصلين بالتأمين فيتوقف الاستدراج الوجداني لحين معاودة القراءة ثم الاستحواذ التام على القلوب والآذان، فلا تكاد تشعر بأحد في المسجد إلا هو، الشاب محمود..

كنت وأنا أستمع إلى تلاوة «الشيخ أحمد» أشعر وكأني ألامس صفحة الماء الهادىء عندما تهفو عليها نسمة عليلة، فيتماوج وجه الماء في أناة وهدوء، تماوجا لا يغير من سيولة سطحه، وسلاسة جريانه..

كان صوته أقرب إلى هذا النسيم المتماوج الهفهاف، الذي يلاطف القلب بلمساته الحانية، فترتجف الأبدان وتدمع العيون..

---

[1] صحيح البخاري..

بينما كنت عندما يعزف صوتك أشعر وكأني في الفضاء الرحيب، وكأن صوتك يغزوه شيئًا فشيئًا، فلا يملك السامع إلا الشعور بالعظمة والجلال في ثنايا هذا الفضاء الهائل، في غير خوف ولا رهبة..

كان صوتك صافيًا رائقًا كأصفى ما يكون الماء الزلال، الذي لا يخفي وراءه شيئًا، من فرط نقائه وجلائه..

هل يمكن بالفعل أن تتجسد الأصوات لتكون أشخاصًا تتحرك يتميز كل منها عن الآخر، إن هذا هو ما كنت أشعر به فعلًا.. وصوت الشاب محمود يغشى مسامعي، وكأنه طيف من خيال تلفه هالة من الدفء، ولا تسلني كيف يكون الصوت دافئًا، فلست أدري كيف يحدث هذا، ولكن أنقل ما أشعر به وألمسه بكل خلايا نفسي..

وكأي مولود تنبض فيه الحياة والحركة رويدًا رويدًا، كذلك كانت الصلاة كأنما تُولد مع تكبيرة الإحرام، ثم تشب وتنمو حتى يوقفها التسليم، إن هذا الوليد الذي نتحدث عنه هو الخشوع والخضوع لله الملك الرحمن..

وكأي وليد، حين تحتضنه ويحتضنك، يكاد يذوب كل منكما في الآخر فيلتصق بك وتصبح وكأنك أنت الوليد، شعورًا وإحساسًا، صفحة بيضاء نقية لم ينقش فيها من متاعب الدنيا شيء، يذوب العمر وتنمحي الأحداث، وتبقى فقط براءة الوليد ولمسته الحانية..

السحر الحلال:

كانت الركعة الأخيرة وكان يشدو بأواخر سورة الحج، عندما تغير المشهد بالكلية..

إن الأذن لا تلتقط أي صوت إلا صوته، إن كل شيء ساكن، خاشع صامت، صمتا ليس له مثيل، ليس كالصمت المعهود في كلِ صلاة، ولكنه صمت يختلف، إنك لا تشعر حتى بتنفس المصلين، وكأن كل خلايا أجسادهم قد توقفت عن كل ما يعكر صفو الخشوع، حتى الدموع تترقرق في العيون دون أن تسيل وكأنها تأبى أن تُحدِثَ صوتًا ينال من سحر الصمت وصداه السحيق..

هل يمكن للصمت أن يتكلم؟ ولم لا..

أليست هذه هي أعمدة المسجد وأركانه ترتجف..

إني أشعر بارتجافها حولي، ويكاد صوت أنينها يوقظ الصمت في غوره السحيق..

ولعلك تسألني: ولم تبكِ وليس لها ذنوب؟

ولست بمخالفك فيما تقول، ولكن هو المسجد حولي والمكان بأكمله له شجو، وحنين..

إنه السحر المكنون، إنه الشاب محمود يتلو كلام الله تعالى، إنها الروح التي تشفي القلوب، وتحيي النفوس..

ماذا حدث؟! هل غفونا أم سُحرنا..

لا لم أغف، وكيف أغفو وقد ضاعت كثير من لوحات نفيسة بسبب غفوات النوم السابقة، فكيف أغفو الآن، لا لم ولن أغف، وسوف أحرص على أعلى درجات التنبه حتى لا تضيع مني لوحة اليوم..

ولكن ماذا حدث؟ إنني لم أغفُ لأنني أتابع معه القراءة جيدا، فكيف حدث هذا الذي اعتراني، لست أدري كل ما أدريه أنه كان يترنم بقوله تعالى:

«وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ»[1]

نعم إنه هو الشاب محمود، وما زلت أراه بكل ملامح جسده، ولكن كيف تحول هكذا..

لا أعلم غير أنني سأنقل لك الأحداث لتفسر لي ما حدث..

كانت هذه أيها الحبيب مصطفى هي الليلة الثانية، التي يسبح فيها الخيال في ملكوت صنع الخالق سبحانه، ولكنها لم تكن نفس سياحة الليلة الأولى، ففي هذه الليلة رأيت الساحر، كان يقف وكأنه خيال، لم يكن السحر الذي حذرونا منه كثيرًا، بل كان طيفا وديعا يغرد بأعذب الألحان، ولهذا فلا تعجب أن يكون من السحر ما هو حلال..

نعم في هذه الليلة عشت السحر الحلال، لقد كان الساحر يقف في سكونٍ تام، ولكنه مع هذا كأنما كان يتحرك وينبض بالحياة، والأطياف تترى دون أن يحرك ساكنًا، فها هو ينثر حولك هذه الأزهار اليانعة، حتى لتكاد تقطفها بيديك، ثم كأنه يهمس إليها فتنقلب طيرا ترفرف بجناحين في تماوج عجيب، وكأنها ترقص بهجًة وطربًا أمام ناظريك، لا تخشى خوفًا ولا رهبًا..

[1] سورة الحج: ٧٨..

هل ترى هذين الجناحين كم هما صغيران يرفرفان حولك، فتدمع عيناك شفقة عليها خشية الإجهاد والتعب، ومع شدة قربها منك فإنك تعجز عن هدهدتها وسقياها..

كم هي صغيرة رقيقة، ولكنها مع ضعفها ترفرف في سعادة وحبور، هل تراها وهي تلف في هذه الموجات والدوائر؟

ولكن ما هذا أين اختفت؟ لا إنها لم تختف بل هو الساحر يهمس مرةً أخرى فإذا هي تتحول إلى يمامٍ أو حمامٍ وديع، لست أدرى على وجه الدقة..

ولكن كل ما أدريه أنها كانت تقف على كتفي، تتمسح بوجهي وأذني، كم لها من ملمس ناعم كالحرير، هل كانت هي هي التي وقفت على كتفي الآخر، أم أنها أطيار أخرى؟

لست أدري لكن كل ما أدريه أنه كان لها نفس الملمس الناعم كالحرير، بالله عليك لا تتحرك فإني أخشى أن تطير، أم أنها طارت بالفعل، ياللعجب هل كانت حقاً تقف على كتفي أم أنه الساحر؟

ياللعجب إنه يقف دون أن ينظر إلينا، فكيف يفعل هذا؟ ألم يكن هذا اليمام والحمام حقيقة؟ فأين ذهب، ياللعجب..

تمهل بالله عليك ـ أيها الحبيب مصطفى ـ فإنه هذه المرة لا يهمس إنه يلقي عليك ثوبًا من ضياء، يملأ النفس بهجة وسعادة، لا تسألني عن حقيقة هذا الثوب فلست أدري، كل ما أدريه أنه يتلألأ بأشعة من نور، يا الله ما هذه المهابة وهذا الجلال..

صبرًا.. صبرًا.. إنه يتغنى بقوله تعالى:«**مَوْلَاكُمْ**» لم يقله بلسانه، بل كان ينطق من أغوار سحره المجهول..

إنها ليست كلمة تقال بل إنها ثوب من الرهبة والخشوع يحتويك دون أن تشعر به، لكنك تستشعر هذا الجلال المهيب، إنها ليست الصلاة التي اعتدناها في غالب الأيام، إنها ارتقاء إلى منازل الملائكة التي تسبح الرحمن فتسجد الكائنات إجلالًا وإشفاقًا..

إنها الأمانة التي أدتها الخلائق المتعددة التي لا تفتر عن صلاتها، دون أن تتداخل الصلوات أو يعكر صفو إحداها الأخرى، إنه السحر الحقيقي وليس تخييل البشر..

يا إلهي:

أكل هذا لأنه تلى: «**مَوْلَاكُمْ**» ياله من ساحر، إنه لا يتحرك ولكنه ينبض بألوان من الحياة متعددة، دون أن يحرك ساكنًا..

لكن لحظة: إنه الآن يكرر نطقها مرة أخرى: «**مَوْلَاكُمْ**»..

عجبًا.. عجبًا.. إن ثوب المهابة والجلال هذه المرة لم يكن هو.. هو.. مع أنه كررها هي هي..

لكن صبرا إنه هذه المرة لا ينطقها من الطِبقةِ العُليا، التي تُخضعك بالركوعِ والسجود بالقلب والجوارح، والدموع أيضًا، قبل أن ينقلك من ركنِ الوقوف إلى ركنٍ آخر..

هذه المرة ينطقها من الطبقة الحانية، إنه يربت علينا وهو يكرر: «**مَوْلَاكُمْ**»..

اللفظ واحد والدلالة تختلف، يا سبحان الله أليس هذا ـ باللهِ عليك ـ هو السحر الحلال كيف استطاع وقد ألبسك ثوب المهابة والخشوع أن يزف إليك هذه البشرى، ألاَّ تخاف لأنه سبحانه مولاكم حبيبكم رحيمكم، إنه مولاكم أنتم لأنكم تقفون بين يديه فهو مولاكم وليس مولى الآخرين..

نعم إنه مولى الجميع قهرًا وإجبارًا، وهكذا كان المعنى عندما رددها أولًا، ولكن في المرة الثانية كان الخطاب لهؤلاء الذين تذرف دموعهم خوفا وطمعا، فهو المولى الرحيم العطوف الذي يأمن في كنفه كل من لاذ به..

يا سبحان الله هل رأيت مثل هذا الساحر، في نفس اللحظة التي يوقظك من الغفلة لأنك بين يدي المولى السيد والمليك، صاحب الجلال والسلطان، إذا به يربت عليك يرفق بك يحنو عليك، لأنك بين يدي المولى الرحيم الودود..

السلام عليكم ورحمة الله
انتهت الصلاة
سبحانك لا إله إلا أنت ولا رب سواك

***

٣

إنه أبي!!

(الموتُ.. نهايةوبداية)

«الموت نهاية وبداية»

تتقدم العلوم يومًا بعد يوم، وكلما انفتحت مغاليق الفهم أصبح تقدمها قفزات هائلة، ومع هذا التسارع الرهيب، وانبهار العقول بما دان لها من المجهول، ظن الإنسان أنه قد أصبح قادرًا على الخلق والإيجاد، وبخاصة أنه قد سبر أغوار الجسد البُشري، قطعة قطعة، مما أطمعه في أن يعيد تركيبه من جديد، ليتحقق له بذلك الخلق والإيجاد، الذي يريد..

وعندما اقتحمني هذا الطوفان الهادر محاولًا أن يهدم كل الثوابت ويقتلعها من جذورها، أشفقت على نفسي وأيضًا على من سواي، كيف ننجو من هذا الكابوس المرعب؟

إنهم يتحدثون عن أشياء لا طاقة لعقلي على استيعابها أو فهمها على الوجه الذي يريح قلبي ويرفع عن كاهلي هذا الهم الثقيل، ولعل أوضح شيء أمكن لعقلي التقاطه هو ما يقولونه عن الخلايا الجذعية، وهذه الثورة الهائلة في عالم الطب..

هل نجحوا حقًا في قهر المرض، إن هذا النجاح هو أول خطوة في طريق الخلق والإيجاد، فهل دانت لهم هذه الخطوة الأولى؟

الغريب أن المستشفيات تعج بالمرضى ومنهم من حار الأطباء في علاجه، بل لا يكاد ينتهي سيل الأمراض التي لم تكن معروفة من قبل، فأين هي حقيقة العلم بالجسد البُشري التي يتباهى بها العلم ويغترَّ بها كثيرٌ من أهلِ العِلم؟

في غياهب هذا الصراع الذي اعترك في عقلي رأيت وجه أبي يطل علي، وما كنت لأنسى أبدًا تلك الليلة التي عدت فيها من السفر ثم ذهبت إليه في حجرته التي يرقد فيها مريضًا لأسلم عليه..

فقد كان نمط حياتي يسير على هذه المنوال كل أسبوع، بسبب طبيعة عملي، حيث كنت أحضر من القاهرة لمدة يومين أو ثلاثة، وكنت عادة أحضر ليلا لأبدأ في الصباح الباكر الرحلة الثانية إلى دمياط ثم العودة للمبيت في المنصورة، وهكذا بشكل مستمر..

في هذه الليلة كنت مشوش الفكر مُضطربًا إلى درجة كبيرة، بسبب بعض الأمور المادية التي حدثت فجأة، وكان لابد من اتخاذ قرار بشأنها، فاستحوذ على أمرها طامعًا في الانتهاء منها ليهدأ بالي..

وفي غمرة الاستغراق في هذه الحالة جاءني صوت أبي ليقول لي: "أقعد شوية"، لا أذكر أنه قال شيئًا آخر..

لم أكن أدري، ما يخبئه القدر، ولم أكن موفقا بالمرة، فما كانت هذه الدقائق القليلة التي أجلسها معه لتعيق شيئًا يمكن أن أفعله، بأي حال من الأحوال، ولكنها رعونة الأبناء وسوء تقديرهم، مهما بلغوا من السن والعمر والحكمة التي يدعونها..

لقد كان رجلًا مريضًا، هده المرض بعد أن كان شعلة نشاط متوقدة في كلِ وقت وحين، وهْماً كان قدر انشغالي بما أفكر فيه، فإنه يمكن تداركه تمامًا، ولكن هو التوفيق الذي يستحقه فقط من استجابت كل أجهزة جسده لمفهوم التوكل الصحيح، وليس دندنة اللسان، التي يصورها في صور عدة، ولكن أبدًا لا يتشربها جسده لتصبح غريزة فيه،

وهكذا كان انشغالنا بالدنيا وهمنا بها، انعكاسا لانقطاع الصِلة بين التوكل اللساني والتوكل الحقيقي الفطري الذي يمثل سجية من سجايا النفس..

لقد اعتذرت لأبي وقلت له: «أراك غدًا»..

وأي غدٍ هذا الذي يملكه أحد من البشر، اعتذرت لأذهب مُسرعًا للبحث عن مخرج للمشكلة المادية التي تشغلني..

وهكذا هو الحال عندما يغيب مفهوم التوكل الصحيح، فلم أفطن لمغزى قول أبي: "أقعد شوية"، وشتان بين أن تلبي بهذه الدقائق المعدودة حاجة محققة تتوقف عليها سعادة أبي، وبين أن تطلب بها شيئًا لا تملكه حتى وإن كان يشغل بالك، فكم من معضلات تنفرج بيسر وسهولة بتوفيق الله عزَّ وجلَّ، وكم من منغصات بسيطة تستفحل وتزداد صعوبة إذا غاب عنها تيسير الله وهدايته، ولو أحسن الإنسان التوكل على الله، لأعطى كل شيء حقه على الوجه الذي يرضي الله تعالى دون خوف مما يمكن أن يحدث بعد ذلك..

أو ليس هذا الذي أراده أبي يمكن أن يكون حاجة من حاجات النفس، كما الطعام والشراب الذي يعبر عنهما الجوع والعطش؟

إن أشد الحاجات قسوة على الإنسان هي تلك التي لا يدري كيف يعبر عن احتياجه لها، فما أسهل أن يقول الجائع أنه جائع، ولكن ما أصعب أن يعبر اللسان عن لهفة نفس على شيءٍ مكبوت داخلها لا تحسن له وصفا..

إن نظرات الأعين تحكي أحيانًا كثيرة ما يعجز اللسان عن وصفه وبيانه، وما أقساها من نظرة تلك التي تأتي في فترة أو لحظة انكسار، إنها إن شئت نداء، أو حتى استغاثة، ولكنك لا تدري لها سبباً..

أو لم يكن يكفي أنه أبوك، وما يدريك لعله عجز عن أن يصور لك حاجته إلى جلوسك معه هذه الدقائق المعدودة، هب أنها كانت شربة ماء تقدمها إلى من يلهث من شدة العطش، هب أنه كان يضرع إليك لتسري عنه شيئًا ما، كان يراه ولا يدري كنهه ولكنه يثقل على نفسه، ولعل المشاركة في هذا الوقت بالحديث معه تخفف عنه من وطأته..

ألم تكن هذه النظرة كافية لتفهم مراده، أمَا فهمت أن اللسان قد يعجز أحيانًا عن النطق بسبب تدفق طوفان المشاعر التي لا يمكنه استيعابها، إنه أب تمر به رؤى لا يمكن أن ينقلها إليك لتستجيب له، ولعل هذه الدقائق دفء تلف به جسده الذي يضنيه الارتعاد..

أمَا فهمت هذه النظرة، إنها لم تكن هي هي النظرة التي يلقاك بها في كلِ مرة، ألم تكن تدري أنها نظرة من يتعلق بأستار الحياة ليبقى، وهي تأبى إلا البعد عنه، إنه يناديك لتمسك بها وتقدمها إليه حتى لا تنفلت منه إلى الأبد، ولكنك تأبى..

نعم أنت لم تكن تدري، وما طلب منك أحد أن تدري، فقط لم لم تنظر إليه كما ينظر إليك هو، بقلبه وعقله ووجدانه، إنها لحظات الرحيل، أنت لا تراها ولكنه يستشعرها، ولعله لم يتيقن منها بعد، ولكنه يراها تقترب، وهو بعدُ يتلهف أن يضم إلى صدره من يحب، إنه مازال جائعا ولكنه ليس الجوع الذي يشبعه الطعام، ولكن الجوع إلى لمسات الحب

والحنان، إنك إن لم تلبِ حاجته الآن فلن تلبيها بعد ذلك أبدًا، وأنت لا تدري، وما قيمة أن تدري بعد فوات الأوان..

هل تقوى أن ترى طفلًا يصرخ من ألم الجوع ويتلوى من الألم؟

إنها العودة مرةً أخرى إلى مرحلة الطفولة العاجزة الكليلة، إنها الشيخوخة والمرض، وها هي في هذه اللحظات حافلة الرحيل تدعوها في عزم وإصرار، إلى حيث لا رجعة أبدًا..

نعم أنت تظن أنك سواء جلست أو لم تجلس فلن تؤخر عن الرحيل شيئًا، ولكن شتان بين رحيل ورحيل..

شتان بين رحيل من ارتوت أعضاء جسده وارتاحت، حتى أصبحت لا تخشى شيئًا، وبين من يلهث من شدة العطش وتشتهي كل خلاياه رشفة أو رشفات يرتوي بها..

هل كانت عيناك أبي تناديني لينال قلبك هذه الرشفات، رحماك ياربي رحماك، وياليتني بين يديك أحتويك يا أبي..

نعم اعتذرت ولم ألبِ حاجتك يا أبي، ولكن لو تدري يا أبي كم بكيت طويلًا عندما ثاب إلى رشدي واستشعرت غفلتي وغبائي، لعفوت عني، ووالله إني لأطمع في عفوك وحنانك يا أبي..

باللهِ عليك لا تلُمني فقد كنتُ ذاك الغر الذي لا يفهم ولا يعي، ولهذا تركتك وذهبت يا أبي..

تركتك وذهبت لأني سمعتك بأذني، بينما عندما تبكي ابنتي تريد شيئًا أو تطلبه مني لا يشغلني عنها شيء بل أنشغل بها عن كل شيء، حتى ولو

كان ما تطلبه حياتي نفسها، لا يلهيني عنها شيء مهما كان، لأني أسمعها بقلبي ومشاعري، وليس بأذني كما سمعتك يا أبي..

إن ابني أو ابنتي إذا تألم منهم أحد أو اشتكى مرضًا تلوَّي بسببه جسدي رأفة به وحنانا، حتى يكون ألمي أشد من ألمه مرات ومرات..

بينما أنت يا أبي سمعتك بأذني ونظرت إليك بعقلي وعيناي، فانشغلت بما أهمني من مشاغل الدنيا ولم أفقه شيئًا مما تبثه عيناك..

وها أنا الآن يا أبي أفهم الحكمة التي من أجلها وصانا الخالق بالوالدين، أكثر من مرة، ولم يقارن بهما الابن والولد:

- «وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا»[1]،
- «وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شيئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا»[2]
- «أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شيئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا»[3]
- «وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا»[4]
- «وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا»[5]
- «وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ»[6]
- «وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا»[1]..

---

[1] سورة البقرة: ٨٣..

[2] سورة النساء: ٣٦..

[3] سورة الأنعام: ١٥١..

[4] سورة الإسراء: ٢٣..

[5] سورة العنكبوت: ٨..

[6] سورة لقمان: ١٤..

لقد فهمت الآن ما لم يشرحه لي أحد، ولكن بعد أن تركتك وانصرفت، وتركتني أنت إلى الأبد، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..

ففي اليوم التالي وكما تعودت سافرت إلى دمياط مبكرا، وعدت ظهرا دون أن أدري عن حال أبي شيئًا، فلم يكن لدينا التليفون المحمول بعد..

عدت لأجد أمي تبكي فانخلع قلبي، وسألتها جزعا ماذا حدث، فقالت إن أبي حملوه إلى مستشفى الطوارىء..

ولن أحكي كثيرًا عن هذه المرحلة لأنها مما يعيشه جميع الناس بصورة أو بأخرى، غير أني أذكر فقط كيف أصابني الهم والغم، خوفا أن لا أستطيع تدارك ما فاتني من نداء أبي وتأخري عنه..

كان كل شيء بالنسبةِ لي في هذه اللحظة هينًا إلا أن يذهب أبي ويتركني بحسرتي وكمدي قبل أن أعتذر إليه وأقبل يده ورأسه وقدميه ندما على ما فاتني، ولكن من لي بذلك إنه الآن بين يدي الأطباء يعالجونه من غيبوبته، نعم إنها الغيبوبة التي لا أملك معها حتى أن أبثه حزني وأسفي على خطأي وتقصيري..

إنها سويعات ثقيلة مرت على وأنا أدور حول نفسي لا أهدأ على حال، هل يكتب الله له الشفاء، فأغسل قدميه بدموع ندمي واعتذاري، أم أنه لن يخرج من هذه الغيبوبة فأموت حزنًا وكمدًا على ما فرطت في جنب أبي..

---

[1] سورة الأحقاف: ١٥..

يقولون لي وكيف كان يمكنك أن تعرف، ولهم العذر في هذا القول فلم يروا ما رأيته أنا من نظرة أبي وهو يناديني، هذه النظرة التي طلبت الكثير ولم أفعله لأنني لم أستقبلها الاستقبال الذي يترجم معانيها، هذه المعاني التي لم أنتبه لها إلا بعد فوات الأوان..

لم يعد لي ملاذ ألجأ إليه إلا أن أتوجه إلى الله تعالى أن ييسر الطبيب الماهر الذي يشفي أبي..

إنهم يقولون إن الطب الآن يأتي بالمعجزات، فأستبشر خيرًا بشفاء أبي، ولكن ما ألبث أن أنظر حولي فأرى جبابرة الدنيا ينامون على فراش المرض فما استطاع طبيب ولا كل الأطباء أن يخرجوه إلى الحياة مرة أخرى، فأتأكد وأزداد يقينًا أن ما يزعمونه من إمكانية الخلق والإيجاد، إن هي إلا شطحات فكر مريض غره من الدنيا طول الأمد..

وعلى هذا فليكن توكلي على الله وحده، فما كل علوم الدنيا وأطبائها إلا أسباب يسيرها الله كيف يشاء، فلا ملجأ ولا ملاذ إلا إليه..

نعم فلنتوكل على الله وندعوه كما هدانا ونلوذ برحمته ورضوانه، ولكن هل استطعنا ذلك حقا؟

إنها النفس البُشرية التي تجزع وتأسى وتئن وتضطرب، وكيف لا ولم نتمرس على التوكل الذي يزرع اليقين في القلب فتتحرك به الجوارح، إن البون ما زال شاسعا بين التوكل الذي تلين به الأعضاء، والتوكل الذي يتمتم به اللسان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..

لقد عجز الأطباء تمامًا أن يخرجوا أبي من غيبوبته، وإن هي إلا أيام قليلة وأتاني صوت أخي، وكنت في القاهرة ليخبرني بنهاية أبي، لقد انتقل إلى حيث لا لقاء..

كان صوته عبر الهاتف يذكر لي شيئًا وكنت أسمع ما لم يقله لي، كنت أسمعه يخبرني بخيبتي وضياعي، ويا ليت البكاء كان يفيد معي لبكيت حتى يذهب ذنبي وينمحي، ولكن حتى البكاء هجرني، وكأنه يقول لي تعذب بسوء فعلتك، نعم انحبس البكاء مكتوما وكأنه يريد أن ينفجر ولكنه لا ينفجر إلا داخلي، إنه يعتصرني ويضغط على كل أجزاء جسدي حتى ليكاد يسحقني من هول عنفه وقسوته..

لم يكن شعوري بالفراق هو سبب هذه المعاناة والألم، ولكن هو الشعور كمن يهوي من علٍ لا يجد ما يتشبث به، يخشى الهاوية والقاع، إنه العجز وفقدان الأمل، في أن أصحح ما وقع مني من سوء وخلل..

نعم لم يكن ألم الفراق، فقد عشناه في كلِ شيء حتى ألفناه، واعتدنا على زوال وطأته بمرور الوقت، ولكن الذي لم نعتده هو هذا الشعور باستحالة استدراك مافات من نقص وتقصير..

ولولا أن سفري إلى المنصورة لم يكن منه بد، لما انتشلني شيء من هذا الإحباط واليأس، ولكن كان لابد من السفر، وهكذا هي أقدار الله لا تتوقف على مشيئة أحد، بل كل شيء يسير كما قدره الله له، حتى حياتنا وحركاتنا ما نحن إلا قوالب لها، بينما هي في حقيقتها إرادة الله

فينا، ولو كانت خاضعة لإرادة البشر لاختل نظام الحياة واضطرب، فسبحان الله:

«الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا»[1]..

نعم قد تكون الحركة القهرية التي يضطر لها الإنسان مرغما على غير إرادة منه أو اختيار فيها من آياتِ الرحمة ما لا يمكن حصره، وهكذا كانت رحلة السفر سببًا في انتشالي من حالة اليأس والإحباط التي استحوذت عليَّ، وكادت أن تسقطني فريسة للشيطان والعياذ بالله، لولا لطف الله..

وصلت إلى المستشفى فإذا هم يغسلون أبي بعد أن استلموه من المشرحة، ورأيته أمامي جثة هامدة، يُصبُّ عليه الماء فلا يحرك ساكنا، ولا ينبس ببنت شفة..

أين هؤلاء الذين تعلقت بهم آمالنا، ويزعمون أنهم يستطيعون الإيجاد من عدم، إنه الوهم والسراب الذي لا يروي ظمئًا ولا يفيد أحدًا..

وها هي لحظة الإفاقة تفجأ العقول والقلوب وتقتحم العيون فلا يغفلها أحد، إنه الخالق سبحانه وحده الذي لا يشاركه في الخلق أحد، وها هو البرهان الذي تنصاع له الأعناق راغمة، يعلنها بلا لبس ولا غموض، إنه الموت قد أتي فهل استطاع أن يمنعه أحد؟..

---

[1] سورة الفرقان: ٢..

اللهم لا تؤاخذنا بما فعل السُفهاءُ منا، ولا بما قال أهلُ الضلالِ زورًا وبُهتانًا..

إنه الموت الذي لا يعلمه إلا الخالق سبحانه، وها هم ملائكة الرحمن يتأهبون لاستلام الجثمان ولكن ليس قبل أن يتطهر من أدران الدنيا..

يا سبحان الله ألم تكن هذه الجثة هي هي بالأمس القريب التي أهلَّت على الوجود بمشيئة الله سبحانه، ليستقبلونها بالغُسلِ أيضًا مُهللين فرحين، فإذا ثابوا إلى رشدهم أذَّنوا في أُذن الوليد وأقاموا في الأخرى، إيمانًا واحتسابًا لأمر خالقهم سبحانه، مُقرين خاضعين راضين بأنهم خلق الله وحده وعبيده وحده سبحانه..

لقد أذَّنوا واستعجلوا الإقامة لأن العمر ومضة لا يلبث أن يزول، ولهذا كانت الإقامة بعد الأذان مباشرة، حتى لا يغفل أحد، ولكن هيهات فإن النسيان من شيمة البشر..

هل رأيت هذا الوليد وهم يغسلونه ليستقبل الحياة على طهارة ونظافة، فإذا ما تم هذا أذنوا وأقاموا تمهيدا للصلاة، ولكن في هذه الومضة عركتنا الحياة، فلابد من غسل أدرانها..

إنهم ليسوا الذين استلموه وليدًا، ولكنها الأمانة موكولة إليهم ليعاد تسليمها إلى خالقها وباريها..

وكما كان الأذان والإقامة إقرارًا بوحدانيةِ الخالقِ سبحانه، فها هي الصلاة تزف الأمانة إلى مالكها وباريها، إقرارًا بأنه لا شريك له في ملكه وسلطانه..

نعم لقد تم الانتهاء من الغسل والكفن ثم ذهبنا إلى المسجد لنصلي على أبي، أو لنسلم الأمانة على الوجه الذي أمر به صاحبها جلَّ وعلا..

ماذا كان يريد أبي أن يقول لي عندما دعاني وعجزت أن أكون عند حسن ظنه بي، هل كان يريد أن يحكي لي عن هذه الومضة الخاطفة التي يطلقون عليها، العمر، هل كان يريد أن يخبرني عن الحقيقة التي تكشفت له، فلكم قيل إن هذه اللحظات يتكشف فيها من الغيب ما لا يتكشف في غيرها، أم كان يريد أن يخبرني أنه راحل ولن يعود مرة أخرى؟..

إنه بالفعل الرحيل، وهاهم يضعونه في نعشه ويسيرون به، إنه لم يعد موجودا، لم يعد لي أب، لقد رحل، لم يرحل مختارا، لأنه لم يخبرنا عن ساعة الرحيل، لأنه لم يكن يعلم، ولم نكن أيضًا نعلم..

فهل كان وقت ندائه لي قد علم أنه راحل؟

شتان بين العلم بالرحيل، وبين هاجس الرحيل، أبدًا لا يستويان..

إن هاجس الرحيل لا يقطع الأمل، فمهما طال العمر أو اشتد المرض وعلا صوت هاجس الرحيل فإن الأمل لا ينقطع، وكلما مرت ساعة زاد الطمع في أن تكون يوما، فإذا مر اليوم زاد الطمع في أن يكون أسبوعا فشهرا فسنة وهكذا..

إن الحياة غريبة فمهما تناوشتنا فيها الخطوب تبقى دائمًا مرغوبة، هل هذه الرغبة هي التي يتحقق بها الاختبار الذي أخبر عنه الخالق سبحانه، لتكون هذه الومضة من الحياة برهانا وحجة عند لقاء الخالق سبحانه، هذه الحجة التي تؤكد أن بقاء الحياة على الأرض ليس مرهونا بمشيئة

البشر، بل ستبقى الحياة ويبقى البشر سواء أكان بقاؤهم عن رغبة منهم أو عدم رغبة فإن الحياة باقية إلى أن يأذن الله تعالى بنهايتها:

«إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ»[1]..

إن عِلمَ الساعةِ ليس قاصرًا على بقاءِ الدنيا وفنائها، بل أيضًا حياة كل إنسانٍ وموته، فإياكم وموت الفجأة، فإن أحدا وإن كان لا يملك دفعه إلا أنه يملك الاستعداد له بكل عمل يرضي الله تعالى، فإذا ما جاءت الفجأة جاءت على طاعة، وعندها أنعم بها من فجأة..

أتدرون الآن معنى الفجأة، إنها كصور التقصير والغفلة والخذلان والعياذ بالله الذي يؤدي إلى فوات ما لا يمكن تداركه بعد ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..

لقد دعاني أبي ولكني تخلفت، فلم أعلم شيئًا، ورحل أبي ولن يعود، فلن أستطيع أن أجيب عن أي شيء مما أريد معرفته، مما تكشف لأبي من عوالم الغيب..

وها هي المقابر أمام أعيننا، ويالها من مكان قفر كئيب، يرتعد الإنسان إذا مر فيه نهارًا فكيف يكون حاله ليلًا، بغير أنيسٍ ولا ونيس..

أَوَ لا تكون الصلاة التي سلمنا بها الأمانة ـ أو كما يقولون الجثة ـ هي الأنيس والونيس، لعلها كذلك، والله أعلم..

---

[1] سورة لقمان: ٣٤..

وها هي الأمانة توضع في مستقرها الأخير في هذه الدنيا، وها هم يعودون على أعقابهم راجعين..

ولكن في هذه اللحظة جاءتني لمحة إفاقة، أو ضمة رحمة من رحمات الله تعالى، فتنبهت إلى أن دوري لم ينتهِ، بل لعله ازداد أهمية، فلقد استحضرت ما كان يفعله بعض صحابة رسول الله «ﷺ» حيث يمكثون بعد الدفن أمام المقبرة حتى ينتهي العرض الأول بعد صلاة الجنازة، فيقرأون القرآن ويستغفرون لمن رحل داعين الله عزَّ وجلَّ أن يثبته عند السؤال..

نعم إنه العرض الأول ففي الحديث الشريف:

عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، رضي الله عنه قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ «ﷺ» فِي جَنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدْ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ «ﷺ» وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ كَأَنَّمَا عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرُ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ بِهِ فِي الْأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «اسْتَعِيذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ» مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا، وَقَالَ: "وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ حِينَ يُقَالُ لَهُ: يَا هَذَا، مَنْ رَبُّكَ وَمَا دِينُكَ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟" قَالَ هَنَّادٌ: قَالَ: "وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟" قَالَ: " فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ «ﷺ» فَيَقُولَانِ: وَمَا يُدْرِيكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ «زَادَ فِي حَدِيثِ جَرِيرٍ» فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ

«يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ»[1]، قَالَ: " فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ قَدْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ" قَالَ: «فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا» قَالَ: «وَيُفْتَحُ لَهُ فِيهَا مَدَّ بَصَرِهِ، إلى آخر الحديث »[2]..

رجوت الله تعالى أن يكون أبي من الذين يثبتهم الله تعالى، ومن الذين يكتب لهم الصدق والقبول فيفرش له مِنَ الْجَنَّةِ، وَيفتح لَهُ بَاب إِلَى الْجَنَّةِ، وَيلبس مِنَ الْجَنَّةِ، إن ربي سميع قريب مجيب الدعاء..

من أجل ذلك جلست دون أن أستجيب ــ هذه المرة ــ للمُعزِّين الذين يطالبونني بالعودة معهم لتلقي واجب العزاء كما اعتاد الناس، وامتنعت ومكثت مع أحبتي ندعو لأبي كما علمنا الشرع الحنيف وأرشدنا إلى فعله..

ولما انصرف الجميع ساءلت نفسي هل هذه هي النهاية؟ هل الموت هو نهاية الإنسان؟

إن هذا التساؤل كنت أفكر فيه كثيرًا، وفيما يقوله من زعم من البشر أنه يملك الخلق والإيجاد، وها هو يفشل تمامًا في منع الموت، وقد كانت الحياة بين أيديهم، ولكن تعطلت بالمرض بعض الوظائف، فعجزوا أن يعيدوها إلى ما كانت عليه، وتفلتت الحياة من بين أيديهم، فكيف يملكون الخلق والإيجاد من عدم؟

---

[1] سورة إبراهيم: ٢٧..

[2] سنن أبي داود، وقال الشيخ الألباني: صحيح..

لقد كذبوا وتملكهم الشيطان فضلوا وأضلوا، فلا معنى للالتفات إليهم، وإذا كانوا قد فشلوا في منعِ الموت فهم في غير ذلك أفشل، فلا خلق ولا إيجاد..

وها هو الموت يعلن في وضوحٍ وجلاء أنه آتٍ لا محالة، وأنه ليس النهاية، بل هو نهاية مرحلة لتبدأ مرحلة أخرى، كما أخبر صاحب الملك والسلطان سبحانه، ولو كان الأمر غير هذا لنجحوا في منع الموت تمامًا..

وإذا كان الموت نهاية وبداية، فهل لي أن أتدارك زلتي وأتوب عن ذنبي تجاه أبي؟

إن الموت نهاية مرحلة الحياة الدنيا، ولكنه بداية مرحلة أخرى، وقد جعل الخالق سبحانه لنا طريقا إلى المرحلة الأخرى كما أخبرنا رسول الله (ﷺ): "إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ"[1]..

إن الصلاة على أبي ليست بمفردها هي الأنيس والونيس، بل إنني شريك مع هذا الأنيس والونيس، فسوف أكون امتدادا لأبي بإذن الله تعالى وتوفيقه ما أحياني الله حتى لا ينقطع عمله، سأدعو له وأعمل من أجله ما يكون له في القبر أنيسًا، ومن الوحشةِ مُؤنِسًا..

نحمدك جميعًا يا الله أن جعلت بعد الموت بداية يمكننا أن نستدرك فيها ما عجزنا أن نفعله لأبوينا أحياء، يا لطيف يا رحمن يا رحيم يا الله..

والحمد لله رب العالمين

***

[1] سُنن الترمذي، وقال الشيخ الألباني: صحيح..

٤

الإحالة إلى المعاش

إلى رئيس الإدارة المركزية

إلى رئيس الإدارة المركزية

«بسم الله الرحمن الرحيم»
رسالة إلى أخي الموقر رئيس الإدارة المركزية
السيد المهندس/ أيمن المعداوي
رئيس الإدارة المركزية
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

يطيب لي في مناسبة لا تتكرر في حياة الإنسان ـ ألا وهي الإحالة إلى سن التقاعد والمعاش ـ أن أعبر لكم عن مكنون مشاعري.. حيث إن هذه المناسبة هي حدث خاص تطفو فيه أحاسيس ليس من السهل وصفها، إلا أن نلتقطها في حينها.. ولهذا رأيت أن أُسجِلَ لكم في هذه الرسالة ما تنبض به خلجاتُ نفسي من مشاعر أستشعرها على هذا النحو للمرة الأولى في حياتي..

وبداية:

أجيب عن تساؤل لعله يكون مطروحًا وهو .. ولم هذه الرسالة؟

وجوابي عن هذا التساؤل أنني وللمرة الأولى في حياتي الوظيفية ـ والتي تختتم الأن ببلوغي سن الستين ـ لم أشعر مُطلقًا تجاه رئيسٍ في عملي بنفس مشاعري تجاهكم والتي يملأها الود والحب والتقدير والإعزاز..

ولعل هذا الشعور هو الذي فرض نفسه على لأسجل هذه المشاعر حيث لا يعلم إلا الله تبارك وتعالى ما سوف تأتي به الأيام ويحمله لنا المستقبل، . فسارعت إلى هذه الرسالة تعبيرًا عن حبي لكم، والذي يجعلني أشعر وكأن الله عزَّ وجلَّ وهبني أخًا وحبيبًا يقرأ مشاعري بقلبه وتتجاوب مشاعره ببسمةٍ مضيئة أشعر معها وكأن الدنيا تبتهج وأطيار الحب تغرد بكل نغم رخيم، ترق به الأحاسيس وتصفو معه النفس، أشعر وكأن الله عزَّ وجلَّ أنعم على بصديق وحبيب أستشعر معه السند والعون إذا ما لجأت إليه غير هياب ولا وجل.. فأنعم به من صديق وأكرم به من حبيب، أسأل الله عزَّ وجلَّ أن يديم بيننا ما حيينا هذا الحب والود والتقدير والإعزاز..

وعن مشاعري في هذه المناسبة أقول:

إنني أشعر وكأني أُستلبت، فوالله ما أشعر داخلي أني بلغت الستين فعلا.. ولولا واقع لا يقبل التكذيب لقلت إن هذه خديعة.. ويالها من مفارقة عجيبة، فإنما هي أعمارنا تجري بين أيدينا لا تتوقف، ولا تبالي أدركنا هذا أم لم ندركه..

ومن هنا نظرت إلى حالي في ضوء هذه الحقيقة المفاجئة، على الرغم من أنها لم تغب عنا لحظة، ولم تأت إلينا بغتة.. بل كانت تخبر عن نفسها وتذكرنا بحقيقتها ساعة بعد ساعة ويوما بعد يوم، ولكنا على الرغم من كل ذلك كُنا في غفلة عنها وكأننا نجهلها، ولا أرى لذلك سببًا إلا أننا نتشبث بما نحن فيه ونعلمه، ونخشى ما هو مجهول لنا ولا نراه، ومن

هنا بدأت لحظات العمر تتفلت من بين أيدينا، بدلا من أن تكون رصيدًا لنا ينمو ويكبُر كلما مضى عليه وقت، وقليلٌ هم من يوفقون إلى ذلك..

«**وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**»[1]..

وقليل ما ندرك هذه الحقيقة أو ننتبه لها، ولولا مثل هذه الوقفات القهرية ـ كما في الإحالة إلى سن المعاش ـ ما اعتبرنا ولا راجعنا أنفسنا، إلا من رَحِمَ اللّهُ تعالى..

وها أنا أنظر إلى نفسي وأراجع حياتي متيقنا أنني لا أملك تغيير شيء فعلته من قبل ولا أرضى عنه الآن إلا أن أعود إلى ربي تبارك وتعالى بالدعاء والتوبة والاستغفار ليمحو سبحانه ما سبق من خطايا، أو زلل، ولا سبيل لمحوه إلا أن يتقبل الله منا الدعاء، فاسأل الله لي أن يعينني على طاعته والتضرع إليه سبحانه..

وحتما في حياة كل منا ما يود لو أنه لم يكن، ولكن هيهات هيهات أن نعود لتصحيح ما وقع منا من أخطاء.. فلم يبق إلا أن ندعوه جلَّ في علاه أن يعفو عنا كلُ من أخطأنا في حقه، .. ولم نتمكن من ترضيته، وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن تبارك وتعالى يقلبها كيف يشاء..

أنظر إلى نفسي في ظل هذه المشاعر وما ينتظرني من غيب مجهول فأجد صعوبة وألما في استحضار هذا الواقع الذي لا مفر منه.. وكأني غصن ينتزع من الشجرة الأم، لو قدر له أن يعبر عن حاله وقت انتزاعه لترقرقت

---

[1] سورة هود: ٨٨..

عيناه بالدموع وامتلأت نفسه بالأسى ألمًا لافتراقه عن الشجرة الأم.. أو خوفًا مما لا يعلمه من مجهول يغلب عليه فيه الشعور بالذبول والجفاف..

ولست أخشى ذلك الآن خوفًا من نُقصان الرزق أو رهبة من مواجهة الصعاب.. فلم تأخذ هذه الأحاسيس مكان الصدارة في هذه اللحظة، ولكن هو استشعار ألم الفراق.. وترقب الوحدة والانفراد.. إن هذه المشاعر لم تمر بي من قبل، على الرغم من أن حالي في العمل لم يتغير ولست أدري لذلك سببًا؟

فهل هو السن التي لم أبلغها من قبل بما تفرضه من متغيرات قهرية؟

لعل هذا أحد الأسباب أو لعله هو السبب لست أدري..

أم أن الحال في العمل قد تغير بعد أن منَّ الله علينا برئاستكم للإدارة..

يقينًا إن هذا التغير أيقظ في قلوبنا مشاعر وأحاسيس لم يكن لها ظهور من قبل.. وعلى الرغم من توالي أكثر من رئيس للإدارة قبلكم إلا أنني كنت أشعر خلال هذه الرئاسات جميعًا أنني لو تركت المكان فلن أشعر مُطلقا بشيء من الألم أو الأسى، بل لعل العكس كان هو الذي يغلب على تقديري أحيانًا..

أما الأن فأصدقكم القول أن الأشخاص والأشياء جميعًا أصبح لها في نفسي مكان لم يكن موجودًا من قبل.. أصبحتُ أحب كل شئ في الإدارة حتى الجدران والمكاتب وكأنها أصبحت تكون لوحة جميلة تسعدني كلما رأيتها.. قد يكون كل جزء فيها على حدة لا يمثل شيئًا يُعتد به.. ولكن هي بأكملها مجتمعة كما هي تعطيك شعورًا بالرضى والارتياح الذي يغمرك بالأُلفةِ والود والحب جميعًا..

إنها هي هي عين الإدارة وهم هم نفس الأفراد الذين أمضينا معًا سنينًا طويلة مرت علينا لم أشعر في أي وقت منها بشيء من هذه المشاعر وهذه الأحاسيس..

هل تدري أخي الحبيب إنني أشعر وكأن وجودكم هو ريشة الفنان المبدع الذي أعاد ترتيب الأشياء في مكانها الجميل.. فجمع شتاتها وأعاد تنسيقها لتصبح هذه اللوحة الجميلة بعد أن كانت قبل ذلك لا تشعر بشئ من الجمال فيها ..

نعم والله إن هذا ما أشعر به وأحسب أنكم هذا الفنان القدير الذي أنطق الأشياء بأجمل ما فيها والقائد الملهم الذي أخرج أفضل ما عند جنوده..

إن النفس البُشرية ستظل دومًا منهلا لكُلِ عجيب وجديد لم يُعلم من قبل، فما كنت أدري أنني سأحب هذا المكان بهذه الصورة وقد كان عبئا ثقيلا على نفسي في أوقات كثيرة قد مضت..

إن الذي يعيش في بستان ما زالت تغرس فيه الشتلات ولم يكتمل لها النمو بعد.. لا يصعب عليه فراقه.. ولا يعز عليه تركه، ولكن عندما تكتمل زهراته ويفوح في الجنبات عطر ثماره.. فإن مغادرته وتركه ستكون في النفس حسرًة وألمًا وعذابًا..

ووالله إني لأشعر أنك أتيت إلى هذه الإدارة وكانت جدباء مقفرة تعلوها الكآبة فأزحت عنها الغبار وكشفت عن ينابيع الجمال والوضاءة فيها

فأصبحت كالبستان الذي أينع وترعرعت فيه الغصون وعطر أجواءه أريج الزهر والثمر..

وعندما تألقت جنبات الإدارة وترونقت إذا بي أُنتزع منها ويُقال لي أني قد بلغت سن الستين، أحقًا قد بلغت هذه السن؟!

ولم في هذا الوقت دون غيره؟!

نعم، إنه قدر لا حيلة لنا فيه..

ولكن لا حيلة لنا أيضًا فيما اعترانا من ذهول وأسى، وفيما اعترانا من حزن وألم..

لم الآن بعد أن تشبثنا بالعمل وأحببناه وطاب لنا المقام فيه..

لم الآن وقد أحببنا المكان بكل ما فيه.. وليس فقط لما أجراه الله تعالى من تجديد على أيديكم، بل لأنه ازدان بهذه الصورة المشرقة التي أحسنتم إخراجها في أبهى منظر..

آلآن وقد أصبح زملاء العمل ينظرون إلى بعضهم كأنهم يتعارفون للمرة الأولى.. ليحل بينهم شعور الحب والود وكأنهم أسرة واحدة.. أو كأنهم الجسد الواحد الذي إذا اشتكى فيه فرد تألم له الأخرون.. وأصبحت واحدًا منهم يسعدني ما يشعرون به من عوامل الفرح والسعادة، ويؤلمني ما يعتريهم من صعاب وألم..

حتى إذا ما اطمأنت النفس وهدأت المشاعر وأشرقت بالتفاؤل والأمل، أُنتزعت انتزاعا دون أن تجدي المقاومة شيئًا، فبالله عليكم أيكون غريبا أن يتملكني الألم وتعتصر نفسي معاناة الاغتراب؟

إن نقل الشتلة من مكانها إلى أرض جديدة في مرحلة الصغر يبشر بترعرعها ونموها وانتشارها بالخير، بينما الشجرة إذا ما استقرت في الأرض وتشعبت جذورها لا تحيا غالبًا إذا ما نقلت إلى أرض جديدة.. إلا بكفاح وعناء وربما لا يكتب لها البقاء..

ولهذا ما من سلوى إلا أن الله عزَّ وجلَّ ملجأ كل مصاب وملاذ كل لاجيء.. فإليه نجأر بالدعاء فادع الله لي، أن يثبتنا في هذه المرحلة الجديدة ويفتح لنا من أبواب رحمته، إنه سميع قريب مجيب الدعاء..

أخي الحبيب لا تعجل بإهمال رسالتي بل دعها في مكان يحفظها فإن الإنسان في زحمة العمل وخضم الأحداث يصعب عليه التنبه لغير المحسوس والملموس، ولكن لابد بعد كل ضجيج من هدأة، وبعد كل سباق من وقفة، وبعد كل حركة من سكون، وعندها ستتذكر أمورا مضت لم تتوقف عندها كثيرًا، ومنها هذه الرسالة ستجد أنها ما زالت تنبض بالمشاعر الصادقة والحب الخالص الذي تطيب به نفسك، وترق به مشاعرك، لأن مشاعر الحب لا تحتاج وسيلة للوصول إلى القلب، بل فقط تحتاج إلى الوجود..

حفظكم الله ورعاكم
وأيدكم وسدد خطاكم
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

***

إلى

زملائي في العمل!!

بسم الله الرحمن الرحيم
إلى زملائي في العمل!!

أسرتي الكبيرة إلى أخوتي وأعزائي زملائي في العمل،،

السلام عليكم
ورحمة الله وبركاته

في هذه اللحظة الفارقة التي تصمت فيها الكلمات لتتحدث المشاعر والأحاسيس، تصبح لغة العيون، ومعالم الوجوه هي المعبرة عما تكنه القلوب وتحتويه..

لأن اللسان ينطق بما تمليه العقول من معانٍ وألفاظ، تلتقطها الآذان ويستشعرها كل إنسانٍ بحسب استيعابه.. ولكن المشاعر والأحاسيس لا يمكن للألفاظ وحدها أن تعبر عنها، لأنها تصدر من القلب.. ولهذا فإن وسيلة تلقيها هي القلوب مباشرة، تقرؤها العيون فترق لها النفوس، وبقدر صدق المشاعر تتجاوب معها القلوب..

وهذا ما أحاول أن استشهد به اليوم تعبيرًا عن صدق حبي لكم، وقسوة الشعور بفراقكم، بعد عمر طويل أمضيناه معًا، تجاوب كل منا مع آمال الآخر وآلامه..

الجماعة وأثرها في حياة الأفراد:

لقد أحببتكم كما يحب الأهل بعضهم بعضًا.. وكنت أشعر أنني جزء من هذه الأسرة الكبيرة التي تجمعنا جميعًا، فكان الواحد منا يسعد بسعادة الآخر ويتألم لألمه ومُصابه..

لقد خلقنا الله تعالى وأودع فينا الحاجة إلى الترابط والاجتماع، حتى أن مشاعرنا لا تصفو لها سعادة إلا بمشاركة الأهل والأحبة، وأصبحت سعادة كل منا صدى لما يلقاه من إحساس الآخرين به، وهكذا كانت أسرتنا سببًا في إحساس الرضا والارتواء لدى كل منا، وبدون هذه الأسرة لا يكتمل لواحدٍ منا سعادة ولا هناء..

مرت بنا هَنَّاتٌ عابرة، من بعض تجاه بعض آخر، تحدث في كلِ الأسر، تكدر الصفو أحيانا، ومع هذا لم تمنعنا أن نعود مرَّة أخرى إلى بعضنا البعض، وقد صفح كل منا عن الآخر، فقد انغرست في خلايانا جذور الحب والألفة، بعد ما اشتركنا جميعًا في تحمل مصاعب، عشناها سويًا أكثر مما نحياها في بيوتنا، بين أبنائنا وأهلينا..

إن هذه الساعات الطويلة التي جمعتنا على مدى سنين طويلة، هي عمر حياتنا الوظيفية، جعلت كثيرًا من مكنون نفوسنا نبوح به فيما بيننا، كما لا يمكننا في مكان آخر، وليس من قبيل المبالغة أن الكثير منا قد اكتسب في عمله بعض الإخوة والذين يشعرون به ـ آلامه وأماله ـ أكثر من شعور إخوته في النسب، وكنت بحمد الله تعالى واحدًا من هؤلاء الذين تبادلوا هذه المشاعر مع الآخرين، فكان منكم الأهل والأصدقاء والأحبة والرفقاء، كُنا أسرة وكيانا واحدا، وما يود أحدنا

أن ينتزع ويبعد عن أسرته وأهله وأحبائه، بل يشق عليه فراقهم، وشتان بين فراق على أمل العودة والتئام الشمل مرة أخرى، وبين الفراق الذي ينبيء عن الغربة الدائمة، والنسيان المرتقب..

مرت بنا في رحلة الحياة حالات كثيرة، تحمل في طياتها مشاعر الغربة والاغتراب، ولكم كانت تنعكس على نفوسنا بغُصةٍ في الحلق أو انقباض في خلايا الجسد، حتى ولو كان الذي يحمل عصاه ليرحل من بيننا جار قريب أو بعيد، قد لا تربطنا به إلا مجرد الرؤية العابرة إذا ما التقينا قَدَرًا في ساعة من ساعات النهار..

لم تكن مشاعرنا تتأثر بالأهل والأقرباء وحسب، بل كانت تستشعر كل معاني الفرقة والاغتراب على أي وجه كانت، حتى ولو تفاوت التأثر بها..

لقد كانت نشأتنا إلى حدٍ ما تتسم ببعض السهولة والهدوء، فلم يكن الصخب العالي والازدحام الشديد على نفس هذا القدر الموجود الآن، ولعل هذا كان من أسباب التآلف الشديد مع كل شيء حولنا، حتى أصبحنا نتشبث به وكأنه جزء من حياتنا، ولهذا فقد كان مغيب أي شيء أو أي أحد ممن تكاملت بهم منظومة حياتنا يمثل حدثًا قاسيًا، وكأنه ينبه بعض خلايا الجسد لتنشط وتنشر في ثنايا الجسد كله ما تحمله من تأثير ومرارة، وقد ينتهي دور المؤثر الخارجي عند مجرد التنبيه، وهكذا انطبعت في خلايانا معاني الفرقة والاغتراب، حتى أصبحنا نخشى الاقتراب منها، وهكذا كان حالي دائمًا، لا قدرة لي

على تجاهل مشاعر الغربة والافتراق، ولهذا أتجنبها ما كان لي إلى ذلك سبيل..

لحظة الوداع الأخيرة

ولكن ها أنا اليوم أُنتزع من بينكم مُرغمًا بغير إرادة مني.. لأودعكم الوداع الأخير، وأستشعر أنني بعد اليوم لن يعد لي وجود بينكم كما كان من قبل.. فلن يكون الغد كالأمس مهما حاولنا..

قد لا يكون الأمر عليكم قاسيًا كما هو بالنسبةِ لي، لأنكم ما زلتم في كنف الأسرة الكبيرة التي تحمل عن كل فرد منها الكثير من الألم والمعاناة، بينما اليوم أُبعد أنا لأصير وحيدا يغيب عني ائتناس الجزء بالكل.. فيتضاعف الألم وتزيد المعاناة..

ولكم هو غريب أمر هذا الإنسان، إنه ليستطيع أن يتحمل مشقات وأعباء وهو مع الجماعة أكثر كثيرًا مما يقدر عليه لو كان وحيدا منعزلا عن الآخرين، وكأن أيدي الجماعة تحمل معه، حتى وإن لم تكن ممتدة إليه فعلًا، ولكنها طبيعة الخلق حيث أهَّلَ الخالق سبحانه كل مخلوق بما يوافق رسالته في الحياة، ولن تتم رسالة الانسان منعزلا عن الآخرين، ولهذا أصبحت خصائص جسده كاملة النضج والقدرة والعطاء إذا ما كانت في جماعة، عنها وهي في معزل عن الآخرين..

ولأن هذه الخصائص والصفات كلّ لا يتجزأ، فقد أصبح الشعور بالفرقة والاغتراب شديد القسوة كلما كان الفراق طويلًا، أو دائمًا، والذي أواجهه الآن لا محالة..

ومع هذه المشاعر التي تعصف بي أقف متشبثًا بكم، لكوني واحد منكم يشق على فراقكم.. فأحاول جاهدا أن أنقش لنفسي مكانا في قلوبكم، لتذكروني به في لحظات صفوكم، فأحظى بدعواتكم، والتي يخفف الله بها كثيرًا من الألم والعناء..

هذه اللحظة الفارقة ـ بلوغ سن المعاش ـ كانت من قبل عنوانًا للانتقال إلى مرحلةٍ ينتظرها الكثيرون علَّهم يعوضون ما فاتهم من أسباب الخير والعطاء.. ينتظرونها حتى تصفو نفوسهم في التوجه إلى الله تعالى بصالح الأعمال، لا يسيطر عليهم هاجس الرزق، حيث لم يكن الفارق بين المرحلتين فادحا، ولا مرهبا بقدر ما هو عليه الآن..

هاجس الرزق بعد المعاش:

إن من أكثر ما **ابتلينا به في عصرنا هذا أننا ألفنا نمطا من المعيشة يخالف نهج النبوة وما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم، فقد قَالَ النَّبِيُّ** «ﷺ»:

«كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالبَسُوا وَتَصَدَّقُوا، فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلاَ مَخِيلَةٍ»

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما:

"كُلْ مَا شِئْتَ، وَالبَسْ مَا شِئْتَ، مَا أَخْطَأَتْكَ اثْنَتَانِ: سَرَفٌ، أَوْ مَخِيلَةٌ"[1]

[1] صحيح البخاري، تعليق مصطفى البغا: (إسراف) هو تجاوز الحد في كل فعل أو قول واستعماله في الإنفاق أشهر من غيره وهو فيه الإنفاق زائدا عما ينبغي ويليق.. (مخيلة) من الخيلاء وهو التكبر.. (ما شئت) مما أحله الله تعالى.. (أخطأتك) تجاوزتك ولم تحصل منك..

ولكن ها نحن قد غرقنا في كماليات الحياة حتى ظننا أنها من أهم الضروريات، وهكذا أصبحت دخولنا من وظائفنا قلَّ أن تلبي ما ألفناه من سُبل العيش..

إن أكثر ما نعانيه إنما يرجع إلى البيئة التي تحيط بنا من كل جانب، والتي أصبحت تتبارى في الحصول على كل جديد، مما تفتقت عنه عقول الغرب، ولم يكن لنا منها بكل أسف إلا أن نكون سوقا رائجة لتصريف ما ينتجون..

كم أشعر بالأسى من هول ما وصلنا إليه، ولم أنجُ من الوقوع في براثنه أيضًا، إن لم أكن بنفسي فعن طريق أولادي، والذين لا يجدون مناصًا من مجاراة أجيالهم..

كان من سبقونا من الأجيال الماضية لا يكاد الواحد منهم يصل إلى سن الستين حتى يتلهف شوقًا إلى الانطلاق عبر المرحلة الجديدة، وقد تحرر من كل ما يثقل كاهله من أعباء، فاستكانت نفسه وهدأت جوارحه، فلم يعد يحتاج أن يلهث خلف شيء ما..

كانت مرحلة ميلاد جديد، ولكنه ميلاد الجود والعطاء، وارتواء الراحة والطمأنينة، كل على نحو ما يحب ويبتغي، فما أكثر من تمتليء بهم المساجد، في كلِ وقت وحين، من أصحاب المعاشات، وإن كانوا ليس كلهم، فهذه سمة الخلق، وطبائع البشر، لن يكونوا أبدًا على قلب رجل واحد، وكذلك ليس كل من خرج إلى مرحلة المعاش ممن يسر الله له الخير ويسره له، وإنما:

«ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ»[1]..

ولأن الله إذا أراد شيئًا هيأ له أسبابه، كذلك فإن وجود الأسباب من حولنا يؤكد أن لها حكمة كلها خير وبركة، والموفَّق من البشر هو الذي يُهدى إليها فيمتثل لمراد الله تعالى منه، فيتحقق له الخير والرضا..

وعندما أنظر إلى نفسي وقد شاءت إرادة الله تعالى أن يكون قدري أن أبدًا مرحلة الإحالة إلى المعاش في ظل ظروفٍ قاسية شديدة، أصبح الفارق فيها بين المرحلتين شاسعًا، فبعد أن كان العائد والدخل من العمل يوفر سبل العيش في يسر وسعة، إذا بالمعاش المُرتقب لا يكاد يفي بضروريات الحياة..

ومن هنا يُصبح حال المُحال إلى المعاش مُفعمًا بالكثير من مشاعر الاضطراب والخوف والوجل، وبخاصة وقد اقتلع من بين عزوته وانتقل إلى الوحدة والفراغ، فهل هذا التباين الهائل بين المرحلتين على النحو الذي تجري به الحياة له غاية وهدف، قدَّره الله لحكمة من أدرك حقيقتها فقد فاز لا محالة..

إن معاناة الناس من آلام المرض هي التي دفعت العلماء للبحث عن العلاج، وكذلك كل ما ينشأ من حاجات واحتياجات كانت دافعا إلى كل الاختراعات التي وصلت إليها عقول البشر، سواء أكان ذلك طلبًا لما ينفع الناس أو غير ذلك..

---

[1] سورة الجمعة: ٤..

ومع كل هذا فإن بعضًا آخر من البشر اعتركتهم أسبابُ الحياة المختلفة، فلم يدركوا لها حِكمة، ولم يغنموا من ورائها نفعا، بل ظلوا في غفلتهم تسيّرهم الحياة كيف شاءت دون حول لهم ولا قوة، حتى انتهت حياتهم..

تذكرت الفريقين جميعًا وأنا أرى نفسي وقد كُنا بالأمسِ نلتقي كل صباح في رحاب أسرة العمل تعلو وجوهنا البشاشة والبشر، ويضم أحدنا الآخر في ود ومحبة، وتملأ نفوسنا البهجة والسعادة، فإذا بي اليوم أستيقظ من نومي وأتهيأ كعادتى للذهاب إلى عملي أو إلى حياتي فإذا بي أرى زوجتي تنظر إلى وكأنها تقول إلى أين أنت ذاهب؟

وكأني أقول لها أنا ذاهب إلى عملي.. ذاهب إلى حياتي، فأرى عينيها تدور وكأنها تهرب مني تريد أن تخفي عني ما تنطق به عيناها، شفقة على وحنانا، وها أنا إذ أهم بالخروج لا أملك إلا أن أعود أدراجي، وقد أدركت أنني لم يعد لي مكان بعد في عملي بين أسرتي وأخوتي وزملائي، وهيهات هيهات أن تغني عنه زيارة بين حين وآخر..

أفيق من غفوتي تتنازعني الحيرة ويتملكني الاضطراب لا أدري ماذا أفعل ولا كيف تمضي أوقاتي؛ هل أُسلم نفسي إلى الفراغ يتناوشني وينهشني؟ أو كيف يمر الوقت من صباحي إلى مسائي، هل يكتب على أن أصارع الوقت، أو أستسلم لأسر النوم والمعاناة، وقد كُنتُ بالأمس أغدو وأروح، أتمني أن يسعفني الوقت لإنجاز ما يطلب مني من أعمال، تتدفق في شراييني نبضات الحياة، فإذا بي اليوم لا عمل لي ولا حياة.. لا تنبض عروقي بالحركة أو النشاط، فإذا ما قيل لي أي ذنب جنته يداك؟ لا أجد

إلا أنهم قالوا إنك أحلت إلى المعاش، أسأل نفسي ولمَ هذا؟ فلا أجد إلا أنني قد أصبح عمري ستين عامًا؛ فيالها من سن..

كنت بالأمس قبل أن أبلغ الستين إذا ما سألني واحدٌ من أولادي شيئًا أحرص على أن ألبي رغبته مُستشعرًا البهجة والسعادة.. فإذا بي اليوم أخشى أن يلقاني ابني أو تسألني ابنتي لتقول لي أنها تريد شيئًا وأهاب أن أعجز عن الوفاء به.. وأخاف أن أرى الألم في عينيها من أجل ذلك.. فإذا ما سألتني لماذا؟ فلا أجد لذلك جوابًا إلا أنني قد بلغت سن الستين.. فهل أصبحت سن الستين فاصلًا بين الحياة والموت؟

أم هل أصبحت فاصلًا بين الراحةِ والمعاناة؟

لا أدري فكل ما أدريه أنني قد بلغت الستين، وها هو زميل لي قد سبقني إلى المعاش بأشهر قليلة يحكي لي كيف أصبح منهكا مطاردا بضرورة البحث عن عمل جديد.. ويخبرني كيف أنه لو تنازل عن كل رغباته وقلل من احتياجاته، فإنه يطارده الألم من عدم قدرته على تلبية حاجات أولاده، هذه الحاجات التي عاشوا عليها ولم يفتقدوها يوما..

أستحضر كل هذا ولا أراني بعيدًا عن مثل حاله، فأسأل نفسي هل يقع هذا تحت تحذير قوله تعالى:

«يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ»[1]، فكثيرًا ما تُنسينا رغبتنا في إسعاد أولادنا وأهلينا أن نفكر فيما يجب علينا ويرضي ربنا، وما لا يجب أن يكون، حتى ولو اعتاده الناس..

[1] سورة التغابن: ١٤..

مكامن الحكمة في تصاريف القدر:

ومع هذا أسأل نفسي وأتساءل عن الحكمة التي من أجلها قدّر الله علينا هذه الحال، والتي يسيطر عليها العنت والمعاناة؟

هل تكون هذه المعاناة مقصودًا منها أن نفيق من غفلتنا، وندرك عظمة ما نسيناه من شرائع ديننا، والتي لو أخذنا بها لما نغَّص حياتنا شيء من أقدار الله قط..

عجيب أمرنا نحن المسلمين لقد تولانا الله تعالى برحمته في كلِ أمور حياتنا، سواء أكان ذلك بلطف خفي، أم بشرعٍ جلي، يحمل أمرًا أو نهيًا، لا يمكن أن ينالنا منه إلا الخير والراحة والرضا، ولكن أين نحن من تعاليم هذا الشرع العظيم، والذي أصبح بالنسبةِ لنا في أحيان كثيرة من قبيل الكلام الذي تلوكه الألسنة دون أن تعني له أي أثر، بل قد يكون في بعض الأحيان مما يُستحي منه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..

يخشى كثير من الناس أن يتفوه بذكر الاقتصاد في المعيشة، وأصبح لدى أغلب هؤلاء التباس شديد بين التقتير المذموم والاقتصاد المحمود، كما هدانا وأرشدنا رَسُول اللَّهِ «ﷺ» إذ يقول:

«مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، حَسْبُ الْآدَمِيِّ، لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ غَلَبَتِ الْآدَمِيَّ نَفْسُهُ، فَثُلُثٌ لِلطَّعَامِ، وَثُلُثٌ لِلشَّرَابِ، وَثُلُثٌ لِلنَّفَسِ»[1]..

[1] سنن ابن ماجه، وقال الشيخ الألباني: صحيح..

لماذا لم ننشأ على فقه هذا الحديث حتى يصبح سمة وطبيعة لخلايا أجسادنا، ولماذا لم نجعله منارة لنا في حياتنا، فنكتفي بالقليل الذي تسلم به حياتنا، ويغنينا عن الخوف مما يتعلق بأرزاقنا؟..

لم أكن متفقًا أبدًا مع هؤلاء الذين يقولون إن الرزق مضمون، ونسوا أن الرزق المضمون ليس معلوما لهم حتى ينتظروه، بل هي حقيقة غيبية لا يعلمها إلا الله تعالى، ولأن علمه سبحانه أزلي قديم لا يتغير بتغير الأحداث، فهو جلَّ في علاه يعلم - أزلًا - ما سوف يكون ويقع من كل إنسان، وقد يكون رزقه قد رتبه الله تعالى على ما سوف يكون منه، وقد يكون رزقه قد علقه الله بشيء آخر، وفي كل من الحالين لا يدري أحد من الخلق ما كتبه الله تعالى له من رزق..

فما يدري هذا الذي تكاسل وتخاذل عن الأخذ بالأسباب التي أمر بها الله تعالى أن تصرفه هذا هو سبب رزقه القليل، ولو أنه سعى وامتثل لمراد الله تعالى لتغير هذا الرزق، وإن كان في حقيقته ليس تغيرًا، بل تغير في تقديرات البشر فقط، بينما لم يكن تغيُرًا في علمِ الله تعالى لأنه جلَّ في علاه يعلم يقينًا ما كان وما سوف يكون، ولتقريب المسألة وتنزه الله عن الشبيه والمثيل - هذا الأب الذي يعلم كيف يتصرف أولاده ومدى تحمل كل منهم للمسئولية، ومن أجل ذلك فهو يكلف كلا منهم بما يعلم أنه قادر على فعله على وجه حسن، وبنفس القدر فهو يعرف مدى رشد كل منهم في أمر المال والإنفاق، فهو يعطي ويمنع بناء على هذا العلم، ولو رأى تغيرا من أحد أبنائه فهو أيضًا سوف يغير من تصرفه معه، وهكذا يتعلق

العطاء ـ إلى درجة ما ـ بتصرفات الأبناء، ولو تغيروا لتغير العطاء أيضًا، وكذلك الرزق، غير أن علم الخالق عزَّ وجلَّ قديم لا يتخلف أبدًا، فهو لا يتوقف على المعايشة أو الأفعال، سبحانه لا نحصي ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه، وتنزه سبحانه عن كل شبيهٍ ومثيل..

والمعنى المقصود أن تسيير أمور معيشتنا على النحو الذي أمر به الله تعالى هو السبب في سعة الرزق، وتنزل البركة، كما في قوله تعالى:

«وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»[1]

وقوله عزَّ وجلَّ:

«فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ❖ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ❖ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا»[2]..

بينما قد يكون التراخي والإهمال والعجز والكسل سببًا في قِلة الرزق، وإن لم يكن ضروريًا، فلله في خلقه شئون وابتلاءات لا يعلمها إلا هو سبحانه..

وفي كل الأحوال فإن من الخطأ الفادح أن تُقارن أمةُ الإسلام نفسها بغيرها من أُممِ الأرض غير المسلمة، لأن الله جلَّ في علاه يُجري من التكاليف على أمة الإسلام ما لا يجريه على غيرها من الأمم، وقد يكون ابتلاءها أضعاف ما تلقاه باقي الأمم، وما ذلك إلا لأنها الأمة التي

---

[1] سورة الأعراف: ٩٦..

[2] سورة نوح: ١٠ـ ١٢..

اختصها لتحمل الرسالة الخاتمة إلى البُشرية جمعاء، ولهذا كان لابد من تأهيلها بما يجعلها قادرة على حمل هذه الأمانة، ومن هنا كان الابتلاء المضاعف على أُمةِ الإسلام لينقيها كما ينقي الكير خبث الحديد..

ومع هذا فليست سعة الرزق أو قلته دليلًا على رضى الخالق أو سخطه، بل هو الابتلاء إذ يقول تبارك وتعالى:

«وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ»[1]..

وفي كل الأحوال فالسعيد حقًا هو من أتاه الرزق بعد طلبه برضى الله تعالى، قلَّ هذا الرزق أو كَثُرَ فسيكون مُباركًا بفضل الله تعالى ومَنِهِ وكرمِه..

وأما هذا الذي أتاه الرزق وقد طلبه بمعصية الله والعياذ بالله، فهو رزق قد محقت بركته، مهما كان كثيرًا وفيرًا، فإنما مآله قريبًا أو بعد أمدٍ بعيدٍ سيتمنى صاحبه لو أنه لم يكن..

ومع هذا وبكل أسف ابتعدنا ونحينا ديننا عن أمور حياتنا حتى اعتصرنا الكد والتعب، وفي ظل هذا أصبح حال من أُحِيلَ إلى المعاش ـ كحال طائرٍ كلَّت جناحاه من الكِبر، فلم يعد يقوى على الطيران ـ فهو يعيش في عشه مع باقي الأفراد، يحيا بحياتهم ويأنس بوجودهم.. ثم إذا به يهوى من شاهق.. فحاله وهو يسقط تاركًا عشه، لا يخلو من ألمٍ واضطراب.. فلا يدري هل تعود جناحاه لتقوى على الطير فيُنقذ من السقوط

[1] سورة الأنبياء: ٣٥..

والاصطدام بالأرض؟ أم أن جناحيه سيتأبَّى عليهما الطيران من جديد.. فلا يكون له نجاة من الصدمة والسقوط..

نعم إن المُحال إلى المعاش لا يخلو أمره من مثل ذلك، لأنه يُطالب بتغيير نمط حياته الذي ارتضاه وتكيَّف معه، هذا النمط الذي غلفته مدنية زائفة، ليس لها من سمة إلا الترف والإسراف على نحو لم يأتِ به الشرع..

فهل يكون ما يواجهه المحال إلى المعاش الآن من عناءٍ وتعبٍ سببًا في إفاقته ليُدركَ أن حياة الترف هذه ليست هي الحياة الحق، هذه الحياة التي كانت مرهونة غالبًا بفترة قوته وشبابه.. ثم إذا عصفت به السن وبلغت قوته إلى حال من الضعف.. فلن يكون له باع أو سبيل إلى مثل هذه الحياة مرة أخرى، فإما أن يعود شابًا مرَّة أخرى ليحصل على ما يريد، ولكن أنَّى له ذلك.. أو يظل كما هو في سن الستين فيكابد المشاق والعنت.. ومن هذا الذي عاد إلى الشباب بعد أن صار كهلا أو شيخا كبيرًا حتى يعود هو..

إن هذا ماليس في مقدور البشر فكيف يطالب هو بذلك؟..

ويا ليتنا تنبهنا لهذا المصير مبكرًا حتى ننتفع في وقتٍ مبكر بما أوصانا به شرعنا، حتى لا يكون مثل هذا المصير هو مصيرنا، ولست أدري السبب الذي يجعل بعضنا يخجل من أن تكون حياته مثالًا للحرص والحكمة فيما يأخذه ويعطيه، وكأنه يخشى أن يتهمه الناس بالبخل، ولا يخشى أن يلام شرعًا على بُعدهِ عن أخلاقِ الشريعة..

أين نحن من حديث رسول الله «ﷺ»:

«فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»[1]

ومع هذا كم من أُناس يأنفون من وصف الفقر، وكأن الفقر والغنى قدر بيد الناس أنفسهم يتحكمون فيه، وليس تصريفا للأرزاق والأقدار بيد الخالق وحده، ولا أحد سواه..

كم من أُناس رهنوا حياتهم بأيدي الآخرين، يستدينون منهم، دون أن تلجئهم ضرورة حقيقية، بل فقط هو خوف أن يطلع الناس على ضيق حالهم، ومن هؤلاء كثير ممن أحيل إلى المعاش، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..

إن هذا ليس من قبيل الحكاية أو الادعاء.. بل ـ بكل أسف ـ هو الواقع الذي نحياه.. حيث يطلب منا بعد مرحلة المعاش، أن نخرج مرَّة أخرى طلبًا للحصول على وظيفة، .. في وقتٍ عز على كثير من الشباب أن يجد هذه الوظيفة، فكيف بكهل أو شيخ كبير.. وما أعجب هذا وما أقساه، فليس الدافع إلى ذلك شرع نمتثل له، بل ترف عهدناه وألفناه، حتى أرهقنا وأقلقنا وعانينا منه ما لا طاقة لنا على تحمله..

إن هذا الاعتراك من أجل المزيد، وبخاصة في هذه السن يصبح كمن يطلب من هذا الشيخ الكبير أن يحمل صخرةً عظيمة لا يملك أن يزحزحها فكيف بحملها؟

---

[1] أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما..

وأعجب من ذلك أن يقال له ألم تكن تعلم أنك بالغ هذه النهاية، وأنك سالك هذا الطريق؟

يعيبون عليه أن لم يدخر من سابق عمله ما يكفُل له كرامة العيش بعد خروجه إلى المعاش، ولكن هل كان هذا مُتاحًا إلا لبعضٍ دون بعضٍ آخر؟

فالذي لا شك فيه أن أمور الحياة لا تجري على نحوٍ عادلٍ مستقيم، بل يتفاوت الأنداد تفاوتًا كبيرًا في دخلهم، دون أي سبب إلا أن هذا التحق بعمل في مكان ما، بينما الآخر التحق بالعمل في مكان غيره، وشتان بين قَدْر رواتب العاملين في الجهتين، لا لشيء أو سبب، بل لعل حجم العمل والجهد المبذول في الجهة ذات الدخل القليل أكثر كثيرًا منه في الجهة ذات الدخل الوفير..

وباللّهِ عليكم أي منطق هذا؟ ألم يبذل صاحب الدخل القليل قصارى جهده ويتفانى بكل طاقته في البذل والعطاء لهذا العمل الذي كُلف به.. حتى استحوذ على كل وقته وكل تفكيره وعقله ووجدانه، كثير هم هؤلاء الذين بلغوا أعلى درجات العلم وشهد لهم الجميع بالتفوق والنبوغ، ومع هذا لم يكن حظهم من الدخل إلا القليل، لا لشيء إلا بسبب جهة العمل، بينما الجهة الأخرى كم فيها من محدودي الذكاء قليلي العلم ولكن تزيد دخولهم عن أضعاف دخل الآخر، فقط هي جهة العمل..

ميزان الاعتدال في السعي والعمل:

إن كل ما يجري في دنيا البشر إنما هو حجة ودليل على أن موازين الخلق مهما بلغت لن يكتب لها العدل والمساواة أبدًا، ولهذا فلا ملجأ ولا ملاذ إلا في جنب الله:

«وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شيئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ»[1]..

إن اختلال كفتي الميزان الذي تمسك به أيدي الناس، قد أغوى كثيرًا منهم حتى ظن صاحب الدخل الوفير أن هذا حقه استحقه بعمله وذكائه، والأمر من هذا والأدهى أنه ينظر إلى الآخرين وكأن ما هم فيه إنما هو بسبب الكسل والتهاون في العمل..

ولكن ياليت هؤلاء ينظرون بعين الإنصاف، هل توانى صاحب الدخل القليل في بذل جهده ووقته؟ أو امتنع عن شيء طُلب منه؟

إن أقسى ما في هذا الأمر أن يُعاقب إنسانٌ بسبب خطأ لا دخل له به من قريبٍ أو بعيد، فكم من أُناسٍ تكدسوا في أماكن العمل بغير عملٍ حقيقي فقتلهم الملل وأعياهم الفراغ، حتى تيبست عقولهم وفقدت قدرتها على الابتكار والتميز، فمن هو الضحية الحقيقي في مثل هذا الحال، والمجني عليه بسبب عدم وجود عمل ثابت يقوم به ينشط به ذهنه ويصح به جسده، إن الكثيرين ممن ينتظمون في العمل بشكل دائم دون فرصة

[1] سورة الأنبياء: ٤٧..

للتراخي أو الكسل كانت نتيجة عملهم توقد في الذهن وحيوية في الجسد، فمن هو المجني عليه حقا؟

وصدق رسول الله «ﷺ» إذ يقول:

"نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ"[1]

أدري أن أحدًا منا لا يملك أن يغير هذا الواقع المحتوم.. فلِمَ إذا أنقل لكم هذه الشكاية وأُفصِح عن هذه المعاناة؟

والحق الذي أتطلع إليه أنني وإن كنت على يقينٍ من عدم قدرة أحد منا على التغيير، إلا أن في الإفصاح عن مكنون النفس سلوى وتفريج عما بها من همٍ وألم..

وأيضًا لعلنا باستحضار هذا الواقع، نعلم أننا بحاجة إلى مراجعة الكثير من شئون حياتنا حتى لا نُصاب بمثل هذا المصاب الجلل..

ومع كل هذا فإني أُذكِرَكُم بأن ما لا حيلة لنا فيه هو قدر من الله تعالى، والرضا بأقدار الله تعالى من تمام الإيمان، ولهذا فعلينا جميعًا أن لا نركن إلى اليأس والقنوط بل لابد من أن نُرِيَ اللّهَ منا حُسن التوكل عليه والرضا بما قسم لنا، ويكون ذلك بالبحث عن كل عملٍ نافع نملأ به وقت الفراغ، على نحوٍ نافع مفيد، وما أجمل أن يكون لكُلِ من خرج إلى المعاش وِرد يومي مع كتابِ اللّهِ تعالى لا يتركه أبدًا، ولتكن في صحبة الأخيار مُتنفسا من ضيقِ الوحدةِ والعُزلةِ في البيوت، ولعل أرجى الصحبة بالبركة هي التي تُعين على الطاعةِ والامتثالِ لمُراد الله تعالى،

[1] صحيح البخاري..

والمشاركة في الآلام والآمال، فإن المشاعر التي تئن منها القلوب إذا ما وجدت مُتنفسا ومُشاركًا، واستشعرتها قلوب المحبين، أَضْفَت على النفس راحة وهيأتها للتحمل.. فتبث فيها الأمل وتمدها بأكسير الحياة..

كذلك لعلنا نتواصى فيما بيننا أن كل من يخرج إلى المعاش لا يحقرن عملا خشية نظرة الناس وانتقادهم له، بل إن وجد هو أن هذا العمل يعينه على السعي والحركة، والنجاة من معاناة الوحدة والفراغ، فليتوكل على الله ويسأله العون، ولا يلتفت إلى لوم أو عتب، فليس اللائم هو الذي يتألم ويعاني «بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ»[1]..

إن الهروب من براثن الوحدة والفراغ يمكن أن يتحقق بأكثر من طريق، وليس بالضرورة بالعمل المنتظم، ولو كان هذا في صورة حلقات تحفيظ قرآن أو دروس علمية للراغبين من الطُلاب، أو غير ذلك مما يتاح من أعمال، وفي كل حال فلنحذر جميعًا الاستسلام للفراغ المؤدي إلى المرض وكأنه قدر محتوم، بل إن كل إنسانٍ يقدر أن يصنع قدره، إذا ما أراد ذلك، ولعل مما يشير إلى هذا المعنى المراد قوله تعالى:

«إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ❖ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ

[1] سورة القيامة: ١٤..

وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ❖ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا»[1]

والمعنى المستفاد أن كل إنسانٍ مطالب باستفراغ الوسع والمجهود في السعي والحركة والعمل النافع، ولا عذر له في الاستسلام لليأس والاحباط مهما كانت المصاعب والعقبات، فإنما المعذورون هم من فقدوا القدرة بسبب مرض أو قلة حيلة لا يملكون دفعها، ومن استعان باللّه فاللّه معينه، فقد قَالَ رَسُولُ اللّهِ «ﷺ»:

«الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللّهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»

وفي الأثر عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ رضي اللّه عنه أنه قَالَ:

"اسْتَعِنْ بِاللّهِ يُغْنِكَ اللّهُ عَمَّا سِوَاهُ، وَلَا يَكُونَنَّ أَحَدٌ أَغْنَى بِاللّهِ مِنْكَ، وَلَا يَكُونَنَّ أَحَدٌ أَفْقَرَ إِلَى اللّهِ مِنْكَ"[2]

فهيا أيها الأحبة نري اللّه منا ما يحب ويرضى..

ولأننا عشنا سويًا كوحدة واحدة يسعَدُ كلُ من فيها بسعادة الآخر.. ويألم لألمه وشكواه، أردت أن أنقش مكانًا لي في قلوبكم كما أن

[1] سورة النساء: ٩٧ – ٩٩..

[2] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم..

مكانكم منقوش في قلبي، لأن المنقوش في القلوب لا يزول، بل يبقى أمدًا طويلًا..

ولعلكم تذكرونني إذا ما خلوتم إلى أنفسكم، فرقت قلوبكم ولانت مشاعركم، فاستشعرتم الحاجة إلى اللجوء إلى الله تعالى بالدعاء، فيكون لي نصيب من دعائكم، فادعوا الله لي فإني أدعو لكم لأني أحبكم، وإِنَّ النَّبِيَّ «ﷺ» كَانَ يَقُولُ:

"دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِخَيْرٍ، قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلٍ"[1]..

وإن عمل الإنسان منا ليتضاعف مرات ومرات بحب الآخرين له، فيكون له بدعائه لأحبته أجر مضاعف، وبدعائهم له أجور مضاعفة، حتى لتكون ثمرة عمره كمن عاش ألف عام أو أكثر، وإن الثمرة الحق لهي التي له عند الله تعالى، وما له من أجر وثواب، فهنيئًا لمن أحب الناس وكثر أحبته في الله..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

[1] صحيح مسلم..

٥

رأيتُ اللهَ

ناجى نبي الله موسى «ﷺ» ربه طالبًا رؤياه فأعلمه سبحانه أن هذا لن يكون، وما كان لأحدٍ من أهل الدنيا أن يراه جلَّ في علاه:
«وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ»[1]..

«قَالَ لَنْ تَرَانِي»

فكيف نراك يارب؟

تكريم المتفوقات:

كان فناء المدرسة يزدان بالطالبات عندما يصطففن في طابور الصباح، والذي يُشبه نصف قوس من دائرة، في المنتصف منه تقف الطالبات الصغريات، وواضح من مظهرهن أنهن طالبات الصف الأول والثاني

[1] سورة الأعراف: ١٤٣..

الابتدائي، بينما في الجانبين تمايز السن إلى درجة كبيرة وكما علمت كان على اليمن الصف الثالث والخامس، وفي الجهة المقابلة الصف الرابع والسادس..

ومع أننا ما زلنا في منتصف فصل الشتاء إلا أن فضل الله كان عظيمًا على البنات في هذا اليوم حيث أشرقت الشمس صافية حانية تبث الدفء والسرور في النفوس، ونسمة البرد التي كانت واضحة عند بداية اللقاء ما لبثت أن تلاشت تمامًا مع سطوع الشمس، وتدفق مشاعر الفرحة التي أضاءت الوجوه والنفوس..

وكانت المدرسة قد أرسلت تخطر أولياء أمور الطالبات المتفوقات اللواتي سيتم تكريمهن، فحضر كثيرون على الرغم من أن الوقت كان مبكرًا، وَوَقفَ الجميعُ في مُواجهة الطالبات، أمام منصة التكريم والتي وُضع عليها مكبر الصوت وشهادات التقدير..

وكان المربي الفاضل عميد المدرسة بلحيته التي علاها الشيب، يتوسط المدرسين القلائل والمدرسات وبجوارهم أولياء الأمور، وكان عدد الرجال فيهم قليلًا أيضًا، ومع هذا فقد وقف الرجال على جانب، والنساء في الجانب الآخر، وقد لاقى هذا التنظيم ارتياحًا من الجميع فقد كانت هذه إحدى المدارس التابعة للأزهر، ويغلب على عامة من يختارون التعليم فيه الحس الإسلامي والنهج الشرعي القويم، دون غلو أو تفريط..

الترتيل الملائكي:

في الحديث الشريف أن رَسُول اللّهِ «ﷺ» قال لِأَبِي مُوسَى الأشعري رضي الله عنه:

«لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ الْبَارِحَةَ، لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ»[1]

وكان حسن الصوت بالقرآن وكان عمر رضي الله عنه إذا رآه قال ذكِّرْنا ربنا يا أبا موسى وفي رواية شوّقنا إلى ربنا فيقرأ عنده»[2]..

وعندما تسمع الأذن الصوت الجميل فإن كل خلايا الجسد تشعر براحة وسكينة، وكأن الصوت قد أصبح علاجًا أو دواءًا حقيقيًا، فهل هذا بسبب الصوت وحده أم أن آذان البشر أيضًا تختلف كما تختلف أصواتهم، فتكون كل أذن لها من الخواص ما ليس لأخرى، تمامًا كالصوت يتغير من إنسانٍ إلى آخر تغيرًا كبيرًا، فهل يمكن أن تتلقى الآذان الأصوات فيتأثر بها كل إنسانٍ بصورةٍ مختلفة عن الآخر «**وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**»[3]، الذي لا شك فيه أن الصوت عندما تستقبله الأذن على هذا النحو الذي يشبه مزمارا من مزامير نبي الله داود عليه السلام فإنه لابد وأن ينزل بردًا وسلامًا على من يستمعه على هذا النحو، وكيف

---

[1] أخرجه الإمامان البخاري ومسلم وغيرهما واللفظ لمسلم..

[2] انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، للإمام ابن حجر العسقلاني..

[3] سورة الذاريات: ٢١..

لا وهو نبي الله تعالى الذي يحمل رسالته سبحانه إلى البشر، وهذا ما رأيناه اليوم بأعيننا..

فقد أمسك أحد الأساتذة الأفاضل مكبر الصوت إيذانا ببدء الحفل معلنا اسم إحدى الطالبات على أنها سوف تشدو ببضع آيات من كتاب الله الكريم، ولم استطع أن أحفظ اسمها على الرغم من أنه قد ذكره كاملا، حيث كنت مازلت منشغلا بالمكان الذي أقف فيه بجوار المدرسين وأولياء الأمور الرجال، فقد حضرت متأخرا قليلًا ولكن بحمد الله كان الحفل مازال في البداية، ولكن استرعى انتباهي بعض الهمسات التي تفيد أن هذه الطالبة قارئة القرآن يتيمة الأبوين، وواضح أنها معروفة في المدرسة لدى معظم المدرسين والمدرسات، ولم أنتبه إلا وصوت رائق عذب، مازالت سيمات الطفولة تلوح فيه، ولكن كان واضحًا التمكن والثبات حين التلاوة، إنه صوت رقراق ليس كصوت الكروان ولا البلابل بل هو مزيج من كل ذلك إنه من هذه الأصوات التي تقرب من الرفيعة في غير حدة ولا صخب بل صوت أسيف عميق يخترق حجب القلب دون أن تشعر به إلا وقد امتلك عليك جنانك، ولو أردنا أن نجد له مثالًا تراه العين فلن يكون إلا شعاعا من نور ينبع من أفق بعيد لا يزاحمه غيره تتمايل حوله الفراشات وكأنها طيور الجنة..

كانت تمسك مكبر الصوت بكلتا يديها، وتضمهما إلى صدرها، وكأنها قائمة خاشعة بين يدي الله في الصلاة، تقف في ثقة وثبات وكأنها قد غشيتها ملائكة الرحمة فلا تكاد تراها إلا صوتا، كأنه يحمل أجنحة تطير بك إلى عنان السماء، لم يكن حجابها هو الأبيض

فقط بل كأنها كانت كتلة من بياض، ليس بياض الملابس فلم تكن بيضاء، ولا بياض الحجاب، بل هو أقرب إلى هالة النور التي تلف الشيء فلا ترى منه إلا بياضًا هو أشعة من نور..

هل يمكن حقًا أن يكون لسانها وهي تتلو القرآن هو لسان الملائكة تنطق به، أم كيف لصوت البشر أن يؤز القلب أزًا، وتئن له المشاعر أنًّا، وتفيض العيون له دمعًا، كان الصوت يبث مع التلاوة شيئًا آخر، لا أدري هل هو الصوت الذي كان يبثه أم أنها الأذن هي التي حركت في القلب كوامنه، فانطلقت من سباتها، هل كان هذا الشيء الآخر حنين لوعة واشتياق، أم هو ترقب ورجاء، أم أنه كل هذا؟

اليقين الذي لا شك فيه أنه قد استيقظ في كلِ نفس ما تهفو إليه وترجوه، وأكاد أرى العيون حولي تذرف الدمع فينسال سيلًا، وكأن كل منا قد انتقل إلى حُلمٍ عزيز:

«إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ❖ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ❖ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ»[1]..

لم يكن أحد يستمع إليها بأذنه، هذا الطائر الصغير الذي يطوي جناحيه على صدره رِقةً وضعفًا، بل كانت القلوب والمشاعر جميعًا لهفى إليها، وكأنها تبث كل ما تحمله من حنان وشفقة، وكأن لسان حال الجميع

[1] سورة فصلت: ٣٠ – ٣٢..

يقول لها نحن أهلك وأحبتك، وهي تشدو أو تشكو إلى الله بارئها الوحدة واللهفة والاشتياق إلى والديها، لم تكن تشتكي بألفاظ تعبر عن قلق واضطراب، بل كانت تناجي ربها راجية طامعة، ساكنة مطمئنة، فحفتها الملائكة وكفكفت عبراتها، لم تكن تنطق وحدها بلسانها، بل كانت الدنيا بأسرها تنطق معها خاشعة خاضعة ترتجف من شدة الخوف والطمع، وهي تتغنى مرة بعد مرة «وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ» وكأنها تبشر والديها بأن حسناتهما لم تنته، بل هي تربو وتزداد كلما رتل لسانها القرآن وتغنت به خلجات قلبها، وها هي تزف إلينا الجنة لنراها بأعيننا لنسعى إليها شوقًا ورغبة، ويالها من بشرى..

لست أدري ماذا دهاني، أو بالأحرى ماذا دهانا جميعًا، إنني أكاد أشعر بالروح الأمين جبريل عليه السلام عندما أتى رسول الله صلى الله وسلم في الغار قائلًا «اقرأ» فقال رسول الله «ﷺ»: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، قَالَ: فَأَخَذَنِي، فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، وهكذا الحال ثلاث مرات يضمه جبريل عليه السلام ضمه حتى يأخذه الجهد، حتى رَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ «ﷺ» تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ، حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ، فَقَالَ: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي»[1]..

---

[1] الحديث كما في البخاري ومسلم وغيرهما من كتب السنة: أَنَّ أم المؤمنين عَائِشَةَ رضي الله عنها، زَوْجَ النَّبِيِّ (ﷺ) قَالَتْ: كَانَ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةَ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، فَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ يَتَحَنَّثُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِيَ أُولَاتِ الْعَدَدِ، قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى فَجِئَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ

هل تفعل هذا بنا الملائكة التي تتحلق حول هذه الزهرة وهي تتلو القرآن الكريم، أم ماذا أصابنا؟

لا يكاد يقوى أحد منا على لملمة فرائصه، إن الأجساد لترتجف حاجة إلى من يحتويها، وها هي تتم قراءتها عند قوله تعالى: «نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ» فكأنما غشيتنا رحمة الرحيم الرحمن، فتماسكت قلوبنا، واستكانت نفوسنا..

حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ، فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، قَالَ: فَأَخَذَنِي، فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: قُلْتُ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، قَالَ: فَأَخَذَنِي، فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: أَقْرَأْ، فَقُلْتُ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، فَأَخَذَنِي، فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: ٢]، فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ، حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ، فَقَالَ: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي»، فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، ثُمَّ قَالَ لِخَدِيجَةَ: «أَيْ خَدِيجَةُ، مَا لِي» وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ، قَالَ: «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي»، قَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: كَلَّا أَبْشِرْ، فَوَاللَّهِ، لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، وَاللَّهِ، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتُكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى، وَهُوَ ابْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أَخِي أَبِيهَا، وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ، وَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعَرَبِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: أَيْ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ، قَالَ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ: يَا ابْنَ أَخِي، مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) خَبَرَ مَا رَآهُ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى (ﷺ)، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، يَا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): «أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟» قَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا "..

مهما حاولت أن أصف هذا المشهد النوراني العظيم المبهر فلن أجسده كما هو عليه فعلا، ولكن عذري في تقصيري أن هذه الصورة الملائكية لا تُنقل بالكلمات، بل هي نبضات القلوب وخبايا النفوس، وإني إذ أفعل فإنما أحاول جاهدًا أن تتلمس يدي غيرها من الأيدي عسى أن ينتقل حديث القلب ومشاعر النفس، فيرى غيري ما أراه الآن، ونحن نتلفت كل منا ينظر إلى الآخر وكأنه يقول لنفسه لا عتب عليك فلست وحدك الذي أبكته الفتاة، أو بكى هو من أجلها، ولكن أين هي إنها لم تعد في نفس المكان الذي وقفت فيه ترتل القرآن ترتيلًا، هل عادت إلى مكانها أم أنها طارت تحملها الملائكة؟

مهما كان الذي حدث فلم يفطن أحد إليه على وجه اليقين، لأن الكل كان في شغل شاغل، جانب السيدات كان مازال يجهش بالبكاء والذى لم تستطع أكثرهن أن تحبسه أكثر من ذلك، بينما كان الرجال في حال ما يود أحد منهم أن يراه الناس فيه، إلا في مثل هذا الموقف، حيث اغرورقت العيون بالدموع، وبعضهم قد سال الدمع على خديه في خطين متقطعين رغمًا عنه..

كنتً من هؤلاءِ الذين يُوصَفون بعزةِ الدمعِ حالِ التأثر والخشوع، وكثيرًا ما تمنيت وأنا أقرأ القرآن أن تدمع عيناي خضوعا وذلا لله رب العالمين، ولكن كانت الدموع غالبًا لا تفارق جفني، ولكن مالي اليوم أجد ما تمنيته قبل ذلك كثيرًا، فها هي الدموع تلبي أمنيتي التي طالت

كثيرًا، وها هي تنهمر دون توقف «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ»[1]..

هل هذه هي حالة الخشوع التي أمرنا الله بها، وبخاصةٍ في الصلاة، وهل من أجل ذلك شرعت صلاة الجماعة، لتستكين النفس وتلين الجوارح ويُعاين الإنسان ضعفه وحاجته إلى ربه ومولاه، إذا ما علا صوت الإمام ترتيلا بكلام الله، الذي لا شك فيه أن الجماعة في الصلاة شرعت لحكمة عظيمة قد يكون هذا جزءً منها، والله أعلى وأعلم..

ومرة أخرى يعلو صوت مكبر الصوت، وقد أمسك به منظم الحفل، ولكن لا يكاد ينطق حتى يتحشرج صوته مرًة أخرى يدافع البكاء، فيصمت هنيهة حتى استطاع أخيرا أن يقدم السيد عميد المدرسة ليلقي كلمته..

كان عميد المدرسة من هؤلاء الرجال الذين تلمس في وجوههم ملامح السماحة واليسر، وقد بدأ بالترحيب بأولياء الأمور الضيوف، وبعد أن بين الغرض من الحفل اختتم كلمته داعيا الله أن تكون جميع طالبات المدرسة متفوقات نابغات..

كان يقف وأمامه شهادات التقدير التي سيتم توزيعها، وكلما علا الصوت معلنا عن صاحبة شهادة التقدير ترتج المدرسة بالتصفيق والمتفوقة تتقدم بين الصفوف لتكون بؤرة أنظار الطالبات جميعًا وكذا أولياء الأمور والمدرسات..

---

[1] سورة الحديد: ١٦..

كانت مشاعر تفيض بالبهجة والسرور وكأن كل أولياء الأمور قد توشحت وجوههم بوشاح من نور من فرط البهجة والسرور والسعادة..

فهذه أم لا تملك نفسها إلا وهي تحتضن أما أخرى تقف بجوارها، ولسانها لا يتوقف عن قول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، ما شاء الله لا قوة إلا بالله، والأخري تجيبها: ربنا يبارك ربنا يبارك، ولعل واحدة منهن لم تلق الأخرى قبل ذلك، ولكن في هذه المناسبة كن جميعًا كصديقات منذ زمنٍ بعيد..

وكأن المدرسة وهي تختار أن يكون التكريم في طابور الصباح وليس في قاعة من قاعات المدرسة كانت حريصة على أن تنطلق المشاعر وتتراقص القلوب دون أن يحدها مقعد أو يمنعها جلوس، فكن جميعًا يقفن مشرقات متألقات..

ولكم سمعنا أصواتًا ونداءات تنادي بمنع حجاب البنات في المرحلة الابتدائية كلها، ولكن لو رأى هؤلاء ما تراه أعيننا الآن ونحن ننظر إلى هذه الزهور وهن يحرصن على ارتداء حجابهن سعيداتٍ مبتهجاتٍ بفضلِ الله عليهن، لو رأى هؤلاء ما نراه لَمَا قالوا ما قالوه أبدًا، ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟

إن العين ليست مرآة جامدة تنقل ما أمامها كما هو دون تغيير أو تبديل، بل هي بوتقة تذوب فيها الصورة قبل رؤياها لتتشكل على نحو ما يجري في العقول، فتتعدد الصور وإن كان المرئي واحدا..

وإذا ما علمنا هذه الحقيقة زال عنا كل عجب، فإن عين الرضا حين ترى زهرة تسير في خفر وحياء، هذه عين يعمر قلب صاحبها بالشكر

والامتنان عرفانا بما وفق له الرحمن، بينما غيرها من العيون ترى الحياء ذلة وانكسارا، فيمتلأ صدر صاحبها نقمةً واستنكارًا، لأن صاحب هذه العين قد انسلخت نفسه من فيوضات عطاء صاحب الجود والمن والعطاء..

إن هذه الوجوه التي امتثلت لربها فارتدت الحجاب لتزداد رونقا وإشراقا، وتشع حُسنًا وجمالًا عندما تراها عينُ الطاعة والإيمان، موقنَةً أن كل ما تجري به أمور الدنيا إنما هو بتقدير وحسبان، وكلما ازداد الإنسان من الله قربا كلما رأت عينه ما يطمئن به قلبه، فخصائص الأشياء ليس صفة ذاتية جامدة، بل إن الخالق سبحانه قد أعطى كل شيء خصائصه التي تؤهله لأداء وظيفته التي أرادها له في الحياة، ومن هذه الخصائص عدم جمود الصفات الخلقية للأشياء، بل لها من المرونة ما لو أدركه الناس لسجدوا للخالق جلَّ جلاله إيمانًا وإقرارًا بعظمته سبحانه، فإن كل صُناع الدنيا مهما برعوا في صنعتهم فلن تتغير صفاتها عند الاستعمال من شخصٍ إلى آخر، بل هي لدى الكل سواء، بينما عين المؤمن ترى من عجائب قدرة الله في خلقه، ما لا تراه عين العاصي أو البعيد عن رحمة الله، والعياذ بالله، تمامًا كمذاقات الأشياء يتذوقها كل لسان بطعم مختلف، مع أن الشيء واحد، إذا هو حلو جميل عند بعض الناس بينما عند بعض آخر لا تقبله النفس ولا ترضاه، فسبحان الله «رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى»[1]..

[1] سورة طه: ٥٠..

«مـريم مصـطفى محمـود» هكـذا ارتفـع الصـوت، ليخـرجني مـن هـذه الومضة التي سرح فيها خيالي، مُستدعيًا حفيدتي لاستلام شهادة التميز تقديرًا لتفوقها في التِرم الأول من امتحان الشهادة الابتدائية..

***

طيف الذكريات:

كنت أنظر إليها ـ كُبرى حفيداتي مريم ـ ووجهها ينبض سعادة وبهجة، وتشع عيناها بنظرة تنبعث من مقلتيها، أقرب ما تكون ببريق الفوز والرضى وهي تستلم الشهادة، وكذلك كان حال أمها تكاد تطير بجناحين فرحا وسعادة بابنتها، دون توقف أمام كون هذا منتصف العام وليس نهايته، أو أنها مازالت بعد في الابتدائي، فلم يكن كل هذا مانعا من الفرحة والسعادة، فقد كانت هذه أولى أفراحها بأولادها في دراستهم، ولا شك أن الشعور بالتميز والتفوق ينشرح به الصدر ويطرب له القلب، ولكن كل هذا لم ينسني هذا اليوم الذي نطق فيه قلبي تسبيحا وتهليلا يكاد يقول بصوت مسموع: رأيت الله رأيت الله، فقد كان السبب أيضًا حفيدتي مريم، وكان هذا منذ ما يزيد عن ثمان سنوات تقريبا، فلم تكن تبلغ من العمر ثلاث سنين بعد..

رأيتَ اللهَ في آية من آياتِ الله تعالى التي يجريها في دنيا البشر لتتنزل السكينة على القلوب المضطربة، وينزاح الهم عن النفوس الكسيرة، إنها رؤيا القلب الذي يرى ما تعجز العين عن رؤياه، وقديما «بينما الإمام محمد بن على بن الحسين ـ رضي الله عنهم جميعًا ـ في فناء الكعبة فإذا أعرابي فقال له هل رأيت الله حيث عبدته فأطرق وأطرق من كان حوله ثم رفع رأسه إليه فقال ما كنت لأعبد شيئًا لم أره فقال وكيف رأيته قال لم تره الأبصار بمشاهدة العيان ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان لا يدرك بالحواس ولا يُقاس بالناس معروف بالآيات منعوت بالعلامات «لَيْسَ

كَمِثْلِهِ شَيْءٌ»[1] ذلك الله لا إله إلا هو فقال الأعرابي الله أعلم حيث يجعل رسالته»[2]..

إن ما يراه القلب هو عين البصيرة، التي ترى حقائق الأشياء وليس ظواهرها:

«أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ»[3]

إن ما يراه القلب أشد تأثيرًا في النفس مما تراه كل العيون، وليس أدل على ذلك من أن العيون جميعًا واحدة ولكن صورة الشيء الواحد تختلف من إنسانٍ إلى آخر، فإن القلب هو الذي يعقل الأشياء على نحو صحيح، ولقد سأل رسول الله موسى «ﷺ» الرؤية البصرية، فكان الجواب الذي لا معقب بعده: «لَنْ تَرَانِي»..

إن العيون مهما ارتقت في مقامها عند خالقها سبحانه لن تراه في هذه الدنيا أبدًا، ولكن رؤيا القلب والفؤاد هي التي يطمع فيها من يسر الله له طريقا إلى مرضاته سبحانه، ومِصداق ذلك ما ورد في الحديث:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ «ﷺ»: "إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلى عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلى مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلى بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا،

---

[1] سورة الشورى: ١١..

[2] تاريخ دمشق لابن عساكر..

[3] سورة الحج: ٤٦..

وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ"[1]..

فكل من أحبه الله تعالى فقد رآه ، وكيف لا وقد أصبح يبصر بعين الله "وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ" إنها عين البصيرة ، يرى بها ما لا تراه عينه ، فيرى الله في كل شيء ، أو كما يقول الإمام ابن رجب:

«أَنَّ مَنِ اجْتَهَدَ بِالتَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ بِالْفَرَائِضِ ، ثُمَّ بِالنَّوَافِلِ ، قَرَّبَهُ إِلَيْهِ ، وَرَقَّاهُ مِنْ دَرَجَةِ الْإِيمَانِ إِلَى دَرَجَةِ الْإِحْسَانِ ، فَيَصِيرُ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى الْحُضُورِ وَالْمُرَاقَبَةِ كَأَنَّهُ يَرَاهُ ، فَيَمْتَلِئُ قَلْبُهُ بِمَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَمَحَبَّتِهِ ، وَعَظَمَتِهِ ، وَخَوْفِهِ ، وَمَهَابَتِهِ ، وَإِجْلَالِهِ ، وَالْأُنْسِ بِهِ ، وَالشَّوْقِ إِلَيْهِ ، حَتَّى يَصِيرَ هَذَا الَّذِي فِي قَلْبِهِ مِنَ الْمَعْرِفَةِ مُشَاهِدًا لَهُ بِعَيْنِ الْبَصِيرَةِ»[2]..

لم أكن حين هلل قلبي قائلًا: «رأيت الله ، رأيت الله» أدَّعِ أنني بلغت مرتبة الذين سمت نفوسهم واطمأنت قلوبهم بحب الله لهم ، ولكنه الطمع والرجاء ، في لحظة لم يبق في النفس فيها من حظوظِ الدنيا شيء إلا أنه فضل الله تعالى..

أمَّا كيف كان ذلك فهذا ما أجتهد في تصويره ليظل كما عشناه واقعًا ملموسًا ، وليس كلامًا ينطق به اللسان ، كضرب من ضروب الخيال..

---

[1] صحيح البخاري..

[2] جامع العلوم والحكم للإمام ابن رجب الحنبلي..

كانت ابنتي ـ أم مريم ـ وقتئذ تقيم مع زوجها في السعودية، إلا أنها كانت وابنتها في زيارة لنا بالقاهرة لمدة شهر تقريبا، قبل أن تسافر مرةً أخرى إلى زوجها، وفي هذه الأثناء ذهبت لزيارة أهلي في المنصورة، حيث تقيم أمي وإخوتي وأخواتي..

وكنت أعمل في القاهرة إلا أن طبيعة عملي تقتضي مني السفر أسبوعيًا لمدة يومين أو ثلاثة إلى المنصورة، وبالطبع كنت أقيم في بيت أهلي أثناء هذه الفترة، إلا أنني كنت مازلت في القاهرة أثناء وجود ابنتي وحفيدتي في المنصورة في هذا الوقت..

وكنت أنا وزوجتي نتصل يوميًا للاطمئنان على ابنتنا وحفيدتنا، وفي هذا اليوم لم نستطع الحديث معها مباشرة، وعند سؤال الأهل تلقينا ردًا مبهما أن مريم "تعبانة شوية وأمها مش عارفة تسيبها"، ثم في اليوم التالي جاء الرد إن مريم وقعت على السلم ورجلها حصل فيها شرخ واحتجزت في المستشفى، ولهذا أمها غير قادرة على الاتصال بنا..

بداية القلق:

وبدأ القلق يساور نفوسنا ولكن دون أن يصل إلى درجة الانزعاج والتوتر نظرًا لأنني سوف أسافر إليهم بعد يومين اثنين، وبالتالي ستتضح الأمور، وإن كان وصف الوقوع على السلم لم يكن مقنعا لاستمرار حفيدتي في المستشفى، ولكن عللنا ذلك بصورة أو بأخرى..

وها أنا أسافر إلى المنصورة وأصل إلى البيت ليقابلني أخي «محمد» ـ والذي يصغرني بعشر سنوات ـ وعندما سألته عن قصة المستشفى أجابني بهذا الجواب الذي نزل على قلبي كالصاعقة، حيث قال: إنها سقطت

من الطابق الخامس، ولولا أنه سارع بطمأنتي أنها بخير لربما كان قد أُغشِيَّ عليَّ من الصدمة، وبخاصة أنني كنت قد واجهت بعض المشاكل الصحية في القلب والشرايين، وتم تركيب دعامة والتنبيه ببعض الإرشادات الحياتية، والتي منها البعد عن الانفعال والتوتر، مع المداومة على العلاج بصفة دائمة..

وصدق من قال: «ولله في كلِ ملمةٍ لطف خفي، يدركه من يدركه ويغفل عنه من غفل، ولكنه حتمًا موجود»..

أفقت من هول المفاجأة وتمالكت نفسي وطلبت من أخي أن يأخذني إلى حيث أرى ابنتي وحفيدتي بالمستشفى، وفي الطريق لم أستطع كبح هواجس السوء التي تكالبت على من كل منفذ، ماذا يمكن أن يكون قد حدث لها من إصابات، وهل يمكن أن تنجو من هذه السقطة نجاة تامة، وماذا يمكن أن يحدث لا قدر الله إن أصابها مكروه، أو مالا يحمد عقباه، إلى آخر هذه الهواجس التي سيطرت على ذهني وتفكيري..

كنت في غاية الاضطراب والقلق والتوتر وتملكني الجزع ولم أعف أخي من اللوم والعتاب على أنه أخفى الحقيقة عنا كل هذا الوقت، وبخاصة أنه من حملة كتاب الله تعالى ومعهود عنه الوضوح والصراحة، إلا أنه أخبرني أن السبب في ذلك يرجع إلى حرص أخي الأصغر «أحمد» على عدم ترويعنا، وبخاصة مع ظروفي الصحية، ولهذا فقد أصر ونبه على الجميع أن يُخفوا الحقيقة، أملًا في أن تمر هذه الرزية بسلام..

وفي مثل هذه الأمور تتبلبل العقول وتعجز عن أخذ القرار الصائب حيث يتراءى لها الشيء ونقيضه سواء، وغالبًا ما تكون النتيجة هي الاستسلام لأي شيء، حتى ولو غلب على الظن خطؤه، فلا يقين في قرار ما مهما اجتهدنا في البحث عنه..

كان زوج ابنتي، والد حفيدتي في عمله في السعوية يتصل بنا كل يوم للاطمئنان على أسرته، وكانت المعلومة التي لدينا لا تدعو إلى إثارة الهواجس، فما نما إلى علمنا بخصوصها كثيرًا ما يتعرض له الأطفال، ولهذا فقد حرصنا على طمأنته، وبخاصة أنه لا يملك من الأمر شيئًا وهو في بلدٍ آخر، ويحتاج حضوره إلى إعداد ووقت، وكان ـ بفضل الله تعالى ـ من الذين يحسنون التوكل على الله واللجوء إليه، فلم يُرهقنا بما لا حيلة لنا فيه، جزاه الله خيرًا..

وكل هذا لم يحل بيني وبين الهلع والجزع، بعد أن علمت بالحادثة، فمهما كان مكانة الحفيدة منا إلا أنها مع كل هذا كالأمانة لدينا، ولا تغني مشاعرنا أمام والدها لو ـ لا قدر الله ـ أصابها مكروه وهي بين أيدينا، أو هكذا كان ظننا، فلم يكن القلق والاضطراب ناشئًا عن لهفتنا ومشاعرنا فقط بل زاد الأمر صعوبةً وشدة أن تمكنت من عقولنا مسألة الأمانة والتفريط فيها، ولكن الله سلم ولطف، ولله الحمد والمِنة والثناء الجميل..

في المستشفى:

لم يكن الذهاب إلى المستشفيات سهلًا بالنسبةِ لي بل كان دومًا مصحوبًا بالقلق والتوتر نظرًا لما أعانيه مما تقع عليه عيني من آلام

المرضى وآهات المصابين، وليس هذا فقط بل إن الزحام الذي يغلب على جنبات المستشفيات وعنابر المرضى يجعلني أشعر بالرغبة في الابتعاد أو الفرار، نظرًا لأنني أميل بطبعي إلى الهدوء والسكينة، ولا أقوى على تحمل الصخب والضوضاء، وهكذا كنت اتجهُ إلى المستشفى وكل هذه المشاعر والأفكار تحتويني وتسيطر علي، ولكن ما باليد حيلة..

وفي المستشفى سار أخي وأنا بجواره واتجه مباشرةً إلى حيث مكان ابنتي وحفيدتي، فما كان إلا أن تجلت لي واحدة أخرى من نفحات اللطف والرحمة، فقد تقدمني أخي إلى داخل الحجرة والتي لم تكن معالمها قد اتضحت لي بعد ولكن عندما وجدته يغلق الباب بعد دخولنا ولم يكن بالحجرة أحد في مواجهة الباب سكنت نفسي إلى أن الأمر يتسم بالخصوصية والهدوء، فقد كانت ابنتي وحفيدتي في حُجرة مستقلة لا يشاركهما فيها أحدٌ آخر، ويتوفر بهذه الحجرة حمام خاص بها، كما يوجد مكان لمن يرافقها، وياله من لطف وياله من تيسير، وما هي إلا لحظة وقد أحست ابنتي بوجودي إلا وهي ترتمي بين ذراعي كالملتاعة المكروبة التي تستمد شيئًا من الراحة والاطمئنان كانت تتلهف إليه، اغرورقت عيناها بالدموع من فرط شعورها بالحاجة إلى وإلى أمها، فلم يغنها عنا أحد سوانا، إلا رحمةً من الله تنزلت عليها في ذروة محنتها، أعانتها على الصبر على مصابها..

ولم يتوقف الأمر عند حدود الإقامة الطيبة، بل أيضًا كانت رعاية حفيدتي محط أنظار الكثير من الأساتذة والذين تسابقوا في بذل الوسع

لكُلِ ما يمكن أن يصل بحفيدتي إلى بر السلامة، ولو كان الأمر يتعلق بي لاختلفت الصورة عن ذلك، ولكن رحمة الله لا تتوقف على سبب، إنها ألطاف الله، ومن هذه الألطاف أن أحد كبار الأساتذة بالمستشفى «دكتور رائد» حفظه الله وبارك فيه وجزاه عنا خير الجزاء، على خلقه الراقي الكريم وصدقه التام وعظيم تفانيه، ابتغاء مرضاة الله تعالى، أسأل الله العلي القدير أن يجزيه بالإحسانِ إحسانًا وأن يُوفقه ويُسدد خطاه لكُلِ ما يقربه منه سبحانه، ويرضاه، إنه سميعٌ قريبٌ مجيبُ الدعاء..

كان صديقًا مُقربًا لأخي، ولهذا فقد تنافس كل صاحب تخصص من الأطباء في تقديم العون والمشورة، على أحسن ما يكون، سواء أكان ذلك بنقل الدم وتوفيره، أو عمل الأشعات المختلفة، أو غير ذلك مما تحتاجه حالة حفيدتي، على أحسن وجه نطمع فيه..

مهما قلت عن وصف حالة الاهتمام هذه فلن أوفيها حقها، لأنني مررت بنفسي بمثل هذه التجربة أكثر من مرة ولم أجد رعاية إلا ما يتاح لكُلِ أحد، وهو قليل، وقد أكد هذا لي أن الأمر هنا ليس خاضعًا لصداقة أخي وما يربط من حب بينه وبين هذا الأستاذ الوفي الكريم، بل هي فيوضات ألطاف الله تعالى التي تتجلى في هذا الموقف لتمسح عبراتٍ وتسكِّنَ قلوب..

كان أخي يرافق ابنتي وحفيدتي خلال وجودهما بالمستشفى ولم يتركهما إلا قليلًا من ساعات النهار فقط لقضاء ما لابد منه، وهو بكل المقاييس المادية أفضل مني كثيرًا في هذا الموقف، نظرًا لما يمتاز به من

سكينة نفس ورضى وتسليم لما تجري به المقادير، افتقرُ إليه إلى حد بعيد أنا وأخي الأصغر، وسكينة أخي هذه تنعكس على من يتواجد معه بالراحة والطمأنينة، وكان وجوده بالفعل مع ابنتي آية أخرى من آياتِ اليسر والسلامة، وعلامة من علامات لطف الله، فهو يمتاز بصوت محبب عند تلاوة القرآن الكريم، يطيب للسامع أن يستزيده، فلا تكاد الأذن تستمع له إلا وينبض القلب راحة وسكينة، وهكذا كان يقضي الليل برفقة ابنتي وحفيدتي، تاليا للقرآن ذاكرا داعيا مستغفرا، بما أعجز عنه أنا أو أخي الأصغر، وما كان هذا ليكون لولا فضل الله ورحمته، فقد كان لابنتي في هذه المحنة رسول الأمل والنجاة فهدأت نفسها واستكانت إلى حد كبير، بعد ما أصابها من هلع وفزع وارتياع..

ومع هذا ها هي تبكي بين ذراعي لا تتمالك نفسها من شدة ما أمثله لها في هذه الحال، مع أنها تدرك جميع الفروق بيني وبين أخي «محمد»، إلا أنها فطرة الخلق التي فطر الله الناس عليها..

إن مشاعر الأبوة والبنوة ليس كمثلها مشاعر أبدًا، ولا يمكن حسابها وتقديرها بما يملكه البشر من مقادير، بل هي منحة الخالق التي من أجلها خصها سبحانه بدرجة لا تضاهيها درجة من درجات التكليف الأخرى «وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا»[1] إن الله لم يأمر بذلك إلا وقد غرس في نفوس الأبناء صفات البنوة التي تؤهلهم للطاعة والامتثال، فالابن جزء أبيه وجزء أمه، وهذه الجزئية ليست

[1] سورة الإسراء: ٢٣..

كباقي الجزئيات، بل هي حياة وأسرار لا يحيط بأغوارها البشر، فكم من طفلٍ تربى بعيدًا عن أبويه، حتى ظنَّ الناسُ أنه قد فقد تعلقه بهما، ولكن أبدًا لم يحدث هذا، إنها ليست أمورًا مادية ولكنها كانقسام الشيء الواحد إلى جزئين، إنها أقرب ما تكون كالصورة في المرآة واحدة ليس كمثلها شيء، وكذلك البنوة والأبوة، إن الجسم الذي يتداعى بالسهر والحمى لما يصيب أي جزء منه، لهو نفسه الذي يتداعى بالسهر والحمى لما يصيب أحدًا من أبنائه، هي نفس الجزئية، حتى وإن انقسمت إلى جسدين، وهذا التداعي يقابله التعلق المكتوم الذي لا يعبر عن نفسه بلسان، بل هو تمامًا كما يلتئم الجرح فيزول الألم كذلك الابن بين جناحي أبيه أو أمه، التئام البعض بالكل، الذي يزول به الألم وتنتهي به المعاناة..

وهكذا كانت ابنتي حين ارتمت بين ذراعي كأنما سرى من جسدها الألم والعناء والتعب، فابتعد عنها وقد أصبحت هي بؤرة قلبي ونفسي ووجداني، فخف عنها الحمل وانزاحت الأثقال..

كانت تنظر إلى وكأنها تنفي عن نفسها أي تقصير أو إهمال أدى إلى ما أصاب حفيدتها، مع أنه لا يوجد بين الخلقِ أحدٌ يمكن أن يتوجع لألم الابن مثل الأم ثم الأب، إلا أن بعض الآلام التي لا يفطن إليها الناس هو ألم اللوم والعتاب، والذي قد ينهش القلب ويؤرق النفس، مهما طال الزمن، فكانت ابنتي تريد أن ترفع عن كاهلها هذا العناء، فما كانت إلا هذه النظرة الباكية الدامعة ولسانها يقول: «واللّٰه ما غابت عن عيني، دي كانت لحظة»..

كفكفت الدمع عن عينيها ورفعت عن قلبها كابوس التعنيف أو التأنيب، وقلت لها مطمئنًا إنها أقدار الله فلا تحملي نفسك ما لا طاقة لك به..

لم تكن كلماتي هي التي هدَّأت نفسها، بل لعلها قد هدأت بالفعل قبل أن تسمعها، ولكنه الشعور الذي يقرب من تعلق الغريق بقارب النجاة، وليس هذا انتقاصا من مشاعرها تجاه أخي وباقي الأهل جميعًا، بل على العكس لقد كان لأخي في قلبها أعظم مكانة، ولكنها استكانة اللبنة في موضعها الذي ليس لها موضع بديل مثله أبدًا..

كانت حفيدتي بفضل الله ومنهِ وكرمه في حالة طيبة بحسب ما أخبروني به، وإن كانت قدمها في الجبس، وكان أهم ما يشغل الجهاز الطبي أن لا يكون هناك أي تهتكات داخلية، وأما كل ما هو ظاهري فمآله بإذن الله تعالى إلى الشفاء، ومن أجل ذلك كانت الإقامة في المستشفى مستمرة إلى حين التأكد من ذلك..

هيأت نفسي للمبيت، وطلبت من أخي أن يأخذ قسطا من الراحة بعد كل العناء الذي لاقاه حتى الآن، وبخاصة أن أخي الأصغر والذي يقترب من نفس صفاتي لم يقوَ على مشاركته في المستشفى، وبخاصة أن الصدمة قد انعكست عليه بالضعف الجسدي الشديد، فلم يقوَ على مواجهة الموقف في المستشفى، ومع هذا فقد ظل مُرابطًا أمام المستشفى ليلبي أي طلب خارجي يطلب منه، وسبحان الله لو كان ثلاثتنا على نفس

الشاكلة فكيف كانت تسير الأمور، ولكن لطف الله أن الأخ الأوسط كان مختلفا عنا، بما نغبطه عليه، ولله الفضل والمنة..

وكانت ليلتى الأولى في المستشفى، والتي عاينت فيها ما تلقاه حفيدتي من رعاية واهتمام لا نظن أن عليه مزيداً مطلوبًا، وما أجمل قولهم: «قدَّر ولطف» والتي عشنا نسمعها كثيرًا ولكن لم أعاينها كما عاينتها الآن..

وأحسب أن ابنتي قالت لي إنها سوف تنام الآن نوما حقيقيًا لم تحظ به في المستشفى قبل اليوم، من شدة ما تعانيه من خوف وقلق واضطراب، فطمأنتها وطلبت منها أن تنام دون خوف أو وجل، فما كان منها إلا أن راحت في نوم عميق..

وجلست مُتفكرًا في كلِ ما حدث، ترى لماذا قدَّرَ الله المصائب إن كان سيصاحبها لطفه سبحانه؟ ولماذا لم يكن اللطف بمنع المصائب ابتداء، فلا تقع؟..

ثم لم ألبث أن تذكرت حديث رَسُولِ اللهِ «ﷺ»:

"إِنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟"[1]

---

[1] صحيح مسلم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ): " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ، فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ

هل هذا هو المعنى أن نرى الله تعالى؟ بالامتثال لأوامره ونواهيه، أم أننا نراه باليقين في أنه بيده مقاليد الأمور كلها دون أحد سواه سبحانه؟

هل يكون بامتحان الله لعباده عند زيارة المريض، أو وجودهم معه، هل يذكرونه جلَّ وعلا ويسألونه الشفاء، أم يغفلون عنه وهو أمامهم؟

وكأنه سبحانه يخبرهم أنه معهم أمامهم ليس بعيدًا عنهم، وكأنه يُحفزهم على الطلب منه والتوجه إليه، إيمانًا منهم بأنه الشافي حقيقة، وأن كل ما يقوم به الطب والعلاج هي أسباب ليس لها بذاتها شيء إلا أن يشاء الله..

وفي الحديث عن أم المؤمنين عَائِشَةَ رضي الله عنها، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ «ﷺ» كَانَ إِذَا عَادَ مَرِيضًا يَقُولُ:

«أَذْهِبِ الْبَاسَ، رَبَّ النَّاسِ، اشْفِهِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا»[1]

وهكذا يكون الإيمان وتكون العبودية الحق، فالمريض بين يدي الله وليس رهن إرادة طبيب أو دواء، بل إن الله تعالى هو الذي يحرك الطبيب ويوجهه، لتنفذ إرادته عزَّ وجلَّ..

ولو استحضرنا هذا المعنى على نحو صحيح فستتعلق قلوبنا بمحرك الأشياء ومسيرها وليس بالشيء نفسه، وهكذا وأنت تراقب المريض

عِنْدِي، يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ، فَلَمْ تَسْقِنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي"..

[1] صحيح مسلم (٤/ ١٧٢٢)..

تكون كل هذه المعاني دائرة في قلبك وعقلك، حتى إذا بلغت اليقين، كنت بحق كمن يري الله وهو أمامك عزَّ وجلَّ وتنزه سبحانه عن الشبيه والمثيل..

إن الحقيقة الكبرى في الحياة التي يغفل عنها الناس، هي هذه الحقيقة التي ابتعد عنها الناس بقدر تعلقهم بالأسباب وتوكلهم عليها «أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ»[1]، إن التعلق بالسبب هو كالظن بأن الطبيب أو الدواء هو سبب الشفاء، وهذا معناه إخراج الشفاء من مشيئة الله تعالى ليكون بمشيئة الأسباب، وهذا هو عين الشرك والعياذ بالله..

فالله عزَّ وجلَّ هو صاحب الأمر كله، وما من شيء في هذا الكون كله إلا بتقديره وإرادته:

«الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا»[2]..

إن الإنسان بضعفه وتعجله ينسى في غمرة الأحداث أنه ما من شيء يحدث إلا وهو مراد الله تعالى، حتى ولو كان له سبب ظاهر، فقد هيأ الله هذا السبب لينفذ مراده عزَّ وجلَّ، تمامًا كما حدثت الحادثة لحفيدتي مريم، كل الأسباب أدت إلى سقوطها، ولكن هذا إنما تم بقدر الله تعالى، ولو لم يرده لتخلفت الأسباب ولما اجتمعت لتؤدي هذه المهمة..

---

[1] سورة النمل: ٦٣..

[2] سورة الفرقان: ٢..

ابنتي تحكي لي:

أخذت ابنتي قسطًا من النوم أزاح عنها كثيرًا من التعب، ولما رأيتها في حالٍ يسمح أن تخبرني عن الحادثة، جلست أسرى عنها طالبًا منها أن تذكر لي الأمر كاملًا، وحتى أرى كيف يمكن إخبار زوجها بهذا الحدث، وتصحيح الخبر الذي لديه..

ولكنها طلبت أن تحكي قبل ذلك قصة واحدة من الملائكة رأتها رأي العين، وكأنها تسمع وترى حديث رسول الله «ﷺ»:

"يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ، وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ"[1]..

إنه لطف الله تعالى، والذي يغفل عنه كثير من الناس، تمامًا كما يغفلون عن عظيم نعمه سبحانه «وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ»[2] لا لشيء إلا لأنها لا تفارقهم أبدًا، فألَفوها حتى غفلوا عنها..

أرادت أن أشاركها الشكر والدعاء امتثالا لقول رسول الله «ﷺ»:

«لَا يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ»[3]..

---

[1] متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه..

[2] سورة النحل: ١٨..

[3] سنن أبي داود، وسنن الترمذي وغيرهما، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، وقال الشيخ الألباني: صحيح..

وها هي تحكي فتقول:

«في غمرة شعوري بالحزن واللوعة ـ قلب كسير ونفس هشة محطمة، وحدي في مكان لا أعرف فيه أحدا، أرى ازدحامًا شديدًا وبشرًا من كل صنف ولون، يجمعهم ما لم أره قبل ذلك رأي العين، المرض والتأوهات، وعلى يدي أحملها ـ ابنتي الصغيرة الوحيدة ـ لا أعلم ما بها ولكن تبدو حالتها مخيفة، فساقها في الجبس، ومطلوب مني الحرص على تثبيتها، وعدم تحريكها حتى لا تتأذى حبيبتي، أنفاسها المتقطعة كأنها شهقات، تأخذ شهيقًا ولا تكاد يتم الزفير كاملا، تنظر إلى بعينين زائغتين، باكيتان تمزقان نياط قلبي، كأنما تشكو ما بها من ألم بتلك النظرات الواهنة، دون أن تستطيع الكلام..

ومن حولي تلك الأعين اللائمة تحاصرني، تتهمني بالتقصير، فبكيت وبكيت كما لم أبك في حياتي، قدماي لا تقويان على حملي، خارت قواي، لا أستطيع الوقوف، لساني يهذي، لا أدري ماذا كنت أقول، كل ما أدريه أنني كنت في جزع وهلع شديد، وفؤاد فارغ ونظرات متحجرة في مقلتي لا تكاد تعي شيئًا، هل تطيب لي حياة لو ـ لا قدر الله ـ أصاب ابنتي ما لا شفاء منه والعياذ بالله، إنه الشعور بالحسرة والضياع، كما الريشة في مهب الريح، كل هذا وابنتي بين يدي لا تفارقني..

وفي أتون هذه المتاهة ومجاهلها إذا بها تأتي إلى ـ كأنها ملك من ملائكة الرحمن ـ سيدة لم أرها من قبل ولا أعلم من هي، وكأنها استجابة ربي لما يدور في قلبي من لوعة وأسى، فأرسل سبحانه هذه الروح الطيبة لتمدني بالزاد الذي يقويني في هذه المصيبة التي ألمت بي..

أقبلت هذه السيدة المباركة، وكأنها طيف من أطياف أمهات المؤمنين، ربتت على كتفي بيدٍ حانية دافئة، وانحنت على تكلمني بكلمات من نور، حتى هدأت نفسي كثيرًا وزالت الرجفة والقشعريرة عن جسدي المتهالك، ثم تلت على آيات من كتاب الله الكريم، كنت أحفظها عن ظهر قلب، وكثيرًا ما كنت أتغنى بها استعذابا لكلام الله تعالى وحبا له، ولكن كانت هذه الروح أو تلك الأم الطيبة، كأنما وهي تتلوها تسمعني إياها للمرة الأولى في حياتي:

«وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ❖ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ❖ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ»[1]

لم يكن شيء في الدنيا بأسرها يمكن أن ينزل على قلبي بمثل هذه الطُمأنينة والسكينة التي انطبعت في قلبي وأنا أسمع هذه الآيات المباركات بتلاوة هذه الأم الرؤوم، التي جاءت في هدوء ورحلت في هدوء دون أن أعرف عنها شيئًا، إلا أنها ملك من ملائكة الرحمن، طمأنتني بأن الله معي، وأوصتني بالصبر، كلمات قليلة كان لها أعظم الأثر، فتحت لي باب التوكل على الله واليقين بأنه حليم رحيم، ولن يضيعني أبدًا..

ونبهتني أن الله هو خير سند لمن يبتغي العون والسند، وعلى قدر اليقين تكون الاجابة، وها قد مضت أكثر من ثماني سنوات، وفي كل مرة أسمع هذه الآيات المباركات أدعو لهذه السيدة الطيبة، التي ألهمتني من

[1] سورة البقرة: ١٥٥ – ١٥٧..

حسن التوكل على الله تعالى ما استكانت به نفسي واطمأن به قلبي، فجزاها الله عني خير الجزاء» انتهى كلامها..

كانت ابنتي تتحدث عن هذه السيدة وكأنها تصورها تصويرًا كأنما تريد أن تريني صورة من صور الملائكة حين تتجسد في هيئة البشر، حتى أنني نسيت بالفعل ما أنا فيه وتملكتني هذه الحالة من الاطمئنان والرضى، وإن كان كل هذا لم يمنع هذه الرعدة الخفيفة التي احتوتني تأثرا بما أسمع، ولعجزي عن فعل أي شيء أكافيء به هذه السيدة أو الملك الطاهر الكريم، إلا أنني قد سجَدَتْ كل جوارحي شكرا وعرفانا أدعوه سبحانه أن يرفع مقام هذه السيدة إلى مصاف الملائكة والنبيين والشهداء والصالحين، في كلِ من الدارين، إنه سبحانه رحمن السموات والأرض وما فيهن..

كنت أظن أن مشاعر الناس هي عبارة عن صفات معنوية لا علاقة لها بخصائص المادة، فالحزن والفرح وغيرهما من المشاعر، لم تكن في منظورنا إلا حالات نفسية تروح وتأتي دون أي مؤثر جسدي مادي، ولكن سبحان الخلاق العظيم «الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ»[1]، ها أنا أعلم أن كل هذه المشاعر تتحكم فيها غدد خلقها الإله سبحانه تتحكم في هذه المشاعر، لتكون حياة الإنسان بأكملها بكل جوانبها المادية والمعنوية مرهونة بمشيئة الخالق وطوع مراده جلَّ جلاله، حتى وإن كان الظاهر أنه إرادة بُشرية، فسبحان من له الملك والملكوت..

[1] سورة السجدة: ٧..

الحادثة:

في حياة الناس ما يطلق عليه عجائب وغرائب، ومن ذلك أشياء لا حيلة للناس فيها، فإذا ما مرت بهم تعجبوا منها وكأنهم ينسبونها إلى المجهول، وبخاصة أن مثل هذه الأمور لا تتوقف على فئة من الناس، يمكن أن تتصف بالصلاح ولكنها تشمل أطياف الناس جميعًا مؤمنهم وكافرهم على حد سواء، وكثيرًا ما أوقع ذلك الناس في حيرة واضطراب، ظنًا منهم أن مثل هذه الأمور لا تليق إلا بأهلِ الصلاح، وإلا فما الفرق بينهم وبين غيرهم..

وقد استحضرت كل هذه المعاني وأنا أسمع ابنتي وهي تحكي كيف

وقعت الحادثة:

كانت تجلس في الطابق الخامس مع ابنة أختي ومعها ابنتها مريم، ولم تكن كثيرة الحركة على الصورة التي يخشى منها، بل كانت دومًا قريبة من أمها لا تكاد تبتعد عنها، وكان من عادة أمي أن تترك باب الشقة مفتوحا فكل من في البيت من العائلة ولا أحد غريب في البيت، ولهذا كان حرص ابنتي أن تكون عينها على باب الشقة خوفا من أن تخرج ابنتها فتقع على السلم، وهكذا جلست تحاور ابنة اختي دون خوف أو توجس وريبة..

وفي لحظة خاطفة غفلت عين ابنتي عن ابنتها، وكأنها غابت عن الوعي، فلم تنتبه إلا وهي تسمع صياحًا يأتي من الشارع، دون أن تدرك في هذه الومضة الخاطفة أن ابنتها ليست بجوارها..

ثم فجأة شهقت شهقة مكروبة وهي تقول "فين مريم"؟

وجرت تنظر إلى الشارع فإذا الناس يهرولون ويتصايحون دون أن تعي من الأمر شيئًا إلا أن ابنتها قد سقطت إلى الشارع..

صرخت في غير وعي وانطلقت تتدحرج على السلم حتى استوقفها أخي «محمد» والذي كان في بداية التنبه إلى الضجيج الذي يحدث، فلما رأى ابنتي على هذه الصورة هرول مُسرعًا ليأتي لها بخمار يستر رأسها، ثم أسرع يجري خلفها، ليعطيها الخمار، قبل أن تخرج إلى الشارع، ولما خرجت إلى الشارع لم تجد ابنتها، إلا أن الواقفين أخبروها أنها ذهبت إلى المستشفى، وكان أخي مازال مُمسكًا بها، وهي تصرخ، فما كان منه إلا أن استوقف سيارة وأخذها مُسرعًا إلى المستشفى حيث أخبره الحضور..

ومع كل ما يجري لم يغب مُطلقا لطف الله تعالى، بل كان من رحمته سبحانه أن زوج أختي «محمود» كان وقت السقوط يقف في البلكونة في الطابق الرابع، فلما رأى حفيدتي تسقط، كأنما ألجمته الصاعقة فلم ينطق بكلمة بل انطلق يجري حافيا مهرولا لا يلوي على شيءٍ ليلحق بحفيدتي وقد التقطها أحد الحضور من الأرض ويسرع بها إلى المستشفى، فما كان منه إلا أن قفز إلى السيارة لا يلوي على شيءٍ إلا إنقاذ حفيدتي، وفي مثل هذه المواقف تخرج مكنونات النفس وتظهر مشاعرها الطيبة الرقيقة والتي قلّ أن تتبعث إلا في مواقف نادرة، ولكنها تنبيء عن نفس حانية مهما بدا منها من مظاهر يظن أن الحياة تتطلبها، فجزاه الله خيرًا ويسر له الخير حيث كان وتولاه بالهدى والرشاد والفلاح في كلِ أحواله..

وهنا أقف هنيهة أخرى لأحكي ما لم تقله ابنتي، ولكن حكاه لي هذا الشاب الذي سخَّرته العناية الإلهية ليتحقق مراد الله تعالى على وِفقَ مراده جلَّ شأنه..

أمام البيت مباشرة يوجد هذا المحل التجاري الذي كان يجلس أمامه بطل حكايتنا ـ وقت الحادثة ـ هذا الشاب اليافع ابن صاحب المحل «مصطفى أحمد» والذي تجلت فيه كل معاني الشهامة والشجاعة والخلق النبيل، وكان من المعتاد أن يجلس أمام المحل بالخارج نظرًا لصغر مساحة المحل، ولحظة الحادثة خطف بصره شيء يسقط من أعلى، فظنه للوهلة الأولى لعبة من لعب الأطفال، ولم ينتبه إلى كونها جسدًا حيًا إلا وهي مُسجاة على الأرض تفرفر وتتلوى من الألم..

وسبحان الله العظيم الذي أقام كل شيء في هذا الكون بقدر ومشيئة لا تخطيء ولا تتخلف، ففي هذه اللحظة يتواجد أيضًا صاحب سيارة بجوار المحل ويجري الأمر وكأن الكل مسخر لغاية لا حيلة له فيها، حيث جرى هذا الشاب الملهم والتقط حفيدتي وأسرع بها إلى السيارة، والتي طار بها صاحبها طيرا إلى المستشفى، دون أن يفكر أحد في شيء، وبخاصة أن زوج أختي كان قد أدركهم فتحركوا جميعًا دون أن يفكر منهم أحد في شيءٍ آخر..

لقد كان هذا الشاب «مصطفى أحمد» كأنما ألهمه الخالق سبحانه حسن التصرف دون حاجة إلى مشورة أو سؤال، فكان تصرفه كأنه بعث لحياة حفيدتي، وقد أظلها طيف الفناء..

وليس بمقدور البشر شيء يكافيء بعث الحياة، إلا أن نتوجه إلى الخالق سبحانه بأن يكافيء هذا الشهم الأمين ما يجزيه عن صنيعه خير الجزاء، وأن يجعل التوفيق والسعادة حظه في كلِ خطوة يخطوها، حفظه الله وأكرمه وسَدَدَ خُطاه..

هذا وقد كان من عظيم ألطاف الله ورحماته أن جند هؤلاء ـ ومنهم الغريب الذي لا نعرفه ـ ليدركوا حفيدتي في أسرع وقت ممكن قبل أن يتمادى أي نزيف داخلي أو خارجي إلى الدرجة التي لا يمكن تداركها، ثم تتوالى ألطاف الله تعالى في المستشفى من كل جانب، بما في ذلك توفير أكياس الدم في اللحظة المطلوبة دون تأخير ولو للحظة..

إن من عجائب هذا الأمر أن مثل هذه الرعاية يصعب أن تتوفر على هذا النحو الدقيق حتى في المستشفيات الخاصة، ولهذا عندما علم والدا زوج ابنتي ـ وهم من سكان القاهرة ـ سارعوا إلى المستشفى، ولم يكن توصيف الحالة معلوما لديهم إلا بالصورة التي أُخبرنا نحن أيضًا بها، ولما أرادا نقل حفيدتهم إلى مستشفى راق بالقاهرة، ورأوا ما تلقاه من رعاية وعناية مع وجود هؤلاء الأساتذة الكرام الطيبين الذين يتسابقون لرعايتها، تقديرا لزميلهم الأستاذ الدكتور «رائد»، غلب على ظنهم أنها لن تحظى بأفضل من هذا، فتركاها وقد تعهدا بتقديم أي نوع من أنواع العون المطلوب لمصلحة الحفيدة، وفي غمرة هذا كله كانا في غاية الرفق والحنو بالنسبةِ لابنتي فلم يفجعاها بلوم ولا تأنيب، بل أظهرا من الاشفاق واللين ما سرَّى كثيرًا عن ابنتي، فجزاهما الله خير الجزاء..

وهكذا اكتملت الصورة المرئية التي اكتنفت الحادثة، والتي كانت على الرغم من جسامتها، تحمل ما لا حصر له من دلائل لطف الله ورحمته، والذي يمثل الصورة التي لا تراها العيون ولكن تراها القلوب التي في الصدور..

آيات اللطف والرحمة:

تستوقفني كثيرًا هذه الأحداث كلما تفكرت فيها، فتارة أنظر إلى ما يقع لغير المسلمين وأجد أنه لا يخلو من عجائب أيضًا، تحمل من الدلائل والعجائب ما لا يقل عما عاينته بنفسي وعايشته آية آية، ثم ما ألبث أن أفيق من هذه الغفلة مستحضرًا أن الكون وما فيه ليس له إلا إله واحد هو الخالق وحده سبحانه ومقدر مقادير الخلائق لا شريك له، ولهذا فالواجب أن يكون النظر متوجها في البحث عن الحكمة، وليس العجب بالبحث عن لِمَ ولماذا..

فمن عظيم حكمته سبحانه أنه رحيم بعباده لطيف ودود كما يجري رحماته على عباده إذا ما دعوه مخلصين له الدين، كذلك تتنزل فيوضات رحماته على كل البشر بغير سبب منهم إلا أنه سبحانه يتألفهم ويناديهم أن هلموا إلى عباد الله..

وإذا كانت وظيفة الرسل هي هداية الخلق إلى عبادته سبحانه، فكذلك ما يراه الناس من عجيب قدرته جلَّ في علاه، هي كذلك من رُسلِ الله تعالى إلى الخلق أجمعين:

«رُسُلًا مُبُشرينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا»[1]

فهل بعد ذلك نريد أن نقصر رحمة الله على المؤمنين؟ أو نسأل لماذا وكأننا نستنكر ذلك والعياذ بالله؟، وهل قطعنا بأن غير المؤمنين لن تنفعهم مثل هذه الآيات وهذه الدلائل الناطقة بعظيم قدرته سبحانه؟

إن من أعظم نعم الله تعالى على خلقه أن قدره لا يتوقف على إرادة أحد ولا مشيئته، وإلا لتعطلت مصالح الناس جميعًا، وتمكن الشيطان من رقاب عامتهم، ولكنه سبحانه رحمن رحيم:

«وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ»[2]

ولعل خير شاهد على ذلك ما نراه ونسمع عنه كل يوم عن هؤلاء الذين يدخلون في دين الله كل يوم، بعد أن أشرقت قلوبهم بأنوار الهداية التي تمثلت وتجلت لهم في آية أو علامة أو رسالة من فيوضات آلاء الله ونعمه، والتي لولاها لماتوا على الكفر، ولكنها رحمات الله..

كذلك ماذا لو تمثلت الرحمة في منع المصيبة ابتداء؟

فإذا كانت ألطاف الله تعالى لا تتخلى عن البشر في كلِ أحوالهم، فلِمَ لم يمنع الرحمن سبحانه المصيبة قبل وقوعها، وهذا ما يتمناه الناس جميعًا، فيريحهم من الجهد والمعاناة..

---

[1] سورة النساء: ١٦٥..

[2] سورة الأنبياء: ١٠٧..

وهنا أيضًا تتجلى آيات الرحمة والحكمة واللطف، على غير ما يظنه غالب البشر، فالله خالقهم أعلم بهم:

«أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ»[1]

ولو جرت المقادير على وفق ما يظن الناس لغفلوا عن خالقهم وما عبدوه وما شكروه، ولطغوا واستكبروا في الأرض وعتوا عتوًا كبيرًا:

«كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ❖ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى»[2]..

وكذلك بالنسبةِ لعباده المؤمنين لو لم يبتليهم سبحانه لما دعوه ولغفلوا عن اللجوء إليه والتوكل عليه، وركنوا إلى الدنيا وما فيها من أسباب..

ومهما ظن الإنسان أنه قادر على الحفاظ على تعلقه بربه، دون عون من خارجه، فلن يستطيع، لأن فطرة الخلق النسيان، ولو لم يوجد ما يذكرهم فلن يتمكنوا من الاستقامة على العبودية التي خلقهم الله من أجلها، ولولا المصيبة ما اضطروا إلى الدعاء، ولهذا كان حديث رسول الله «ﷺ»:

"إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ"[3]

ثُمَّ قَرَأَ:

«وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ»[4]

---

[1] سورة الملك: ١٤..

[2] سورة العلق: ٦، ٧..

[3] مسند أحمد، وقال الشيخ الألباني: صحيح..

[4] سورة غافر: ٦٠..

وها أنا أنظر إلى حفيدتي وهي بحمد الله تعالى تمشي في نضارة وعافية وسلامة من كل سوء، ولله الحمد والمنة، فلا يسعني إلا أن أستحضر العديد من آياتِ رحماته وألطافه سبحانه، والتي ارتبطت في ذهني بتلك الحادثة التي أنطقت كل جوارحي تسبيحًا وتحميدًا: "رأيت الله، رأيت الله"، فلله الحمد والثناء الجميل الذي يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه..

مساء يوم الحفل:

بعد العودة من الحفل وفي هذه الأمسية الجميلة التي جمعت الأسرة بأكملها مع ابنتي وحفيدتي حيث كان وجه ابنتي يتلألأ بالرضا والسعادة وهي تقول:

«اسأل الله الذي شكر للرجل صنيعه فغفر له وأدخله الجنة، "حيث سقى كلبًا كان يلهث من العطش"[1]، أن يشكر لهذه الأم أو هذا الملك الأمين صنيعها معي، وأن يجزيها بخير ما يجزي به الصديقين والشهداء والصالحين، حيث أحيت قلبي في لحظة شارف عندها على العدم، وانتشلتني من هاوية اليأس والقنوط، والعياذ بالله، فعسى ربي أن يجمعني بها في الفردوس الأعلى من الجنة، لأنظر إليها وألمس يديها حيث لم تتح لي هذه الفرصة في حياتنا الدنيا، ليأتنس قلبي بقلبها، وتسمعها كل خلايا نفسي وخلجات قلبي ووهج مشاعري، كم أنا ممتنة لها وشاكرة لها فلم أنسها يومًا منذ أن أهلَّت على بهذا الوجه الملائكي

[1] في صحيح البخاري، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ (ﷺ): «أَنَّ رَجُلًا رَأَى كَلْبًا يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ، فَأَخَذَ الرَّجُلُ خُفَّهُ، فَجَعَلَ يَغْرِفُ لَهُ بِهِ حَتَّى أَرْوَاهُ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَأَدْخَلَهُ الجَنَّةَ»

البشوش الواثق المطمئن، حتى كانت لحظتها بالنسبةِ لي كأهلي جميعًا، وما زلت أسمعها تشد من أزري وتربط على قلبي باليقين بالله فإنه معي وكفى به سندًا ومُعينًا، فلك الحمد يارب، وهاهي ابنتي قد شفاها الله لي وكأن لم يكن بها شيء، غير أن بها ندبة لا تكاد تُرى سوى أنها تذكرنا بعظيم فضل الله تعالى علينا، ووافر نعمته، فله الحمد والشكر والثناء الجميل سبحانه» انتهى كلام ابنتي..

وسبحان الله كأن الملائكة قد احاطت بنا اليوم بأكمله اليوم، ففي الصباح كانت قارئة القرآن التي كأنما أوتيت مِزمارًا من مزامير داود عليه السلام، وها هي الأخرى التي حملت السكينة إلى قلب ابنتي، وكأنها تجلس معنا تضفي على جلستنا روحانية وبِشرًا وسعادة، بارك الله فيهما وفي الجميع..

***

وفي الختام:

كما علمنا رسول الله «ﷺ» في الحديث الشريف:

"مَنْ دَعَا لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ، قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلٍ"[1]..

فإلى كل من أجرى الله على يديه من الخير ما يبتغي به وجهه سبحانه لا يسعنا إلا أن نتوجه إلى الله الرحمن الرحيم أن يشملهم بعونه ورعايته وأن يجعلهم من عتقائه من النار ومن المقبولين، ويجعلهم ممن وصفهم حديث رسول الله «ﷺ»:

«إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ عِبَادًا لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ يغبطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ قِيلَ: مَنْ هُمْ لَعَلَّنَا نُحِبُّهُمْ؟ قَالَ: هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِنُورِ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ أَرْحَامٍ وَلَا انْتِسَابٍ وُجُوهُهُمْ نُورٌ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ ثُمَّ قَرَأَ"[2]:

«أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خوف عليهم ولا هم يحزنون»[3]..

والحمد لله رب العالمين،،

---

[1] صحيح مسلم..

[2] سنن أبي داود، وقال الشيخ الألباني: صحيح..

[3] سورة يونس: ٦٢..

الفهرس

***

بين يدي الكتاب ٧
المقدمة ١٧
التمهيد ٢١

١

المتحابون في الله

..... ٢٩
على خطى السلف الصالح ٣١
بُشريات الخير ٣٣
وللبشرى دليل ٣٧
وكان اللقاء ٤٣
ما بعد اللقاء ٤٩
قدر الله فينا ٥٢
مع الأسرة ٥٥
بعد الدراسة ٥٧
الأخ الأكبر محمد ٥٨
البحث عن عمل ٦٢
علامات مضيئة ٧٠

فاكهة الأسرة ٧١
لست وحيداً ٧٥
مـــا أقرضـــتك ٧٧
القدوة والمثال ٨٣

٢

الســاحر ٨٩

السحر والاشتراك في المعاني ٩١
السباق إلى التراويح ٩٣
ثمرة الاجتهاد في العبادة ٩٥
صلاة الجماعة ٩٨
زينة التلاوة ١٠١
السحر الحلال ١٠٩

٣

إنه أبي «الموت نهاية وبداية»

..... ١١٥

٤

الإحالة إلى المعاش ١٣٣
إلى رئيس الإدارة المركزية..... ١٣٧
إلى زملائي في العمل..... ١٤٧
الجماعة وأثرها في حياة الأفراد ١٥٠
لحظة الوداع الأخيرة ١٥٢
هاجس الرزق بعد المعاش ١٥٣
مكامن الحِكمة في تصاريف القدر ١٥٨
ميزان الاعتدال في السعي والعمل ١٦٥

٥

رأيت الله

..... ١٧١
تكريم المتفوقات ١٧٣
الترتيل الملائكي ١٧٥
طيف الذكريات ١٨٥
بداية القلق ١٨٨
في المستشفى ١٩٠
ابنتي تحكي لي ١٩٩
الحادثة ٢٠٣

آيات اللطف والرحمة ٢٠٧
مساء يوم الحفل ٢١٠
وفي الختام ٢١٢
الفهرس ٢٠٧

***